

العلمانية في ميزان العقل

عيد الدويھيس

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله.

يعيش العالم اليوم فترة من أشد فترات الجهل والضياع في الجوانب العقائدية والاجتماعية والسياسية، وتعرض العلم الفكري الى تشوهات كثيرة حتى أصبح الحق باطلا والباطل حقا، فلم يعد البشر يعرفون الله سبحانه وتعالى، وما هي صفاته؟ ولماذا خلقهم؟ وكيف يعبدونه ويطيعونه؟ وما هو التوحيد والإيمان؟ وما هو الشرك والكفر؟ وهذه أمور هامة جدا لأنها تتعلق بالحقائق الكبرى في الكون، ويجهل البشر كذلك المعاني الصحيحة للحرية والعدل والحقوق والواجبات الزوجية والإرهاب والرحمة..... الخ مما أشعل بين المخلصين منهم النزاعات والصراعات السياسية والاجتماعية ، والسبب الرئيس وراء هذا الجهل هو الاقتناع بالعلمانية التي يعترف أهلها أن ما عندهم هو آراء متناقضة، وليس حقائق فكرية فللحرية عندهم معاني متناقضة وكذلك للعدل والعبادة والفساد..... الخ وهذا التناقض هو الجهل بعينه، ولكن العلمانيين استطاعوا أن يبعدوا الناس عن التعمق في العلمانية ليكتشفوا فشلها، وأنها والفلسفة وجهان لعملة واحدة، وذلك بأن اشغلوهم بالشعارات الجميلة، والأهداف العامة، والاختباء خلف العلم المادي والديمقراطية وتوجيه الاتهامات الكثيرة لخصومها، وخاصة للاتجاه الإسلامي فإذا كان الاتجاه الإسلامي على علاقة طيبة مع حكومة عربية اتهم بأن هذا تحالف مع الاستبداد والانتهازية والمتاجرة بالدين، واتهم علماء الإسلام بأنهم وعاظ السلاطين، وإذا فعل العلمانيون ذلك قالوا هو تعاون لمصلحة الشعب، ومحاولة إصلاح من الداخل، وتفويت الفرصة على أعداء الوطن الخارجيين، أما إذا حمل الاتجاه الإسلامي السلاح على حكومة فإنهم يتهمونه بالإرهاب، والتطرف، وبأنهم خوارج وأن هدفهم كرسي الحكم، ولو فعلوا هم ذلك لوصفوه بأنه كفاح وثورة ومحاربة لأنظمة عميلة ، وما أقوله ليس افتراضات بل

واقع شاهدناه خلال الخمسين سنة الماضية، ولا شك في أن هذه العقلية العلمانية لا تصلح للبناء والإصلاح لأنها تحتكم الى الهوى والجهل الفكري، وما ينطبق على الجانب السياسي من ضياع المعايير والضوابط في الحكم على الأعمال والمواقف ينطبق أيضا على الجوانب العقائدية وما فيها من حق وباطل، وضياعهم فيها أشد خطرا، وأكثر تدميرا، ويأتي هذا الكتاب ليسلط الأضواء على حقيقة العلمانية بعد أن يجردها من الأقنعة التي تختبئ خلفها، ومن المساحيق التجميلية التي تضعها وعندها سيكتشف الناس كم هي قبيحة وشريرة، وسيقتنعوا بأنهم عاشوا أكبر عملية تزوير فكري في التاريخ، وأقول وأكرر: إن العلمانية ليست قوية بل هزيلة وضعيفة، ولكنها لم تجد من يهاجمها وينتقدها بصورة عميقة وذكية. ويأتي هذا الكتاب "العلمانية في ميزان العقل" بعد كتابي "عجز العقل العلماني" كجزء ثان من عملية جراحية طويلة لوضع النقاط على الحروف في مواضع العقل والعلمانية والعلم والجهل، والدين والفلسفة والاجتهاد والعدل، والحرية، وإذا كان الكتاب الأول قد ناقش الموضوع بطريقة علمية عميقة متسلسلة فإن هذا الكتاب ركز على الشرح والتفصيل والأمثلة الواقعية.

وفي الختام أجد من واجبي أن أشكر كل من ساعدني في إنجاز هذا الكتاب، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم، وأسأل كل من انتفع بشيء منه أن يدعو لي ولوالدي وللمسلمين أجمعين.

عيد بطاح الدويهيس

الكويت في 29 من ذي القعدة 1423

هجريّة

1 فبراير 2003 ميلادية

المدخل لقراءة هذا الكتاب

هناك نقاط لا بد من توضيحها حتى تتم قراءة هذا الكتاب بصورة صحيحة منها:- 1- الاستشهاد بالأمثلة الواقعية مطلوب جزئياً لإثبات نجاح أو فشل مبدأ أو فكرة أو مشروع ، إلا أنه ليس الوسيلة الصحيحة للحكم على المبادئ، لأن في واقع كل الدول الإسلامية والعلمانية قديماً وحديثاً إنجازات طيبة، وانحرافات سيئة ، فإيمان الشعوب بمبادئها يختلف من فترة الى أخرى، ويختلف الإيمان باختلاف الأفراد، كما أن هناك عوامل كثيرة تؤثر في الواقع فالواقع لا تصنعه المبادئ وحدها ، ولكن إذا كان الواقع ، والسلوك والأعمال والأقوال جاءت ممن يؤمنون بالمبادئ فهي محسوبة عليهم، وقد حاولت في هذا الكتاب أن أركز على المبادئ وعلى أدلتها العقلية لإثبات صوابها أو خطئها وابتعدت قدر الإمكان عن الواقع حتى ولو استشهدت به أحيانا .

2- نقدي الشديد للعلمانية ليس معناه أنها الخطر الوحيد الذي يواجه المسلمين والعالم ، فهناك أخطار كثيرة مثل التطرف باسم الإسلام، وعدم التزام الكثيرين بالصلاة والزكاة والصدق ، وضعف الدعوة إلى الله ، والفقر والعصبيات العرقية والسياسية والديكتاتورية ، والفساد الإداري ، وغياب المعاهد العلمية ؛ وهذه الأمور بحاجة إلى جهود إصلاحية كبيرة جداً ، وقد ذكرت بعضاً منها في هذا الكتاب ، وليس هدف هذا الكتاب الوقوف عندها لأن موضوعه هو العلمانية .

3- انتقادي للعلمانية الرأسمالية ليس معناه أنه ليست لديها إيجابيات ، ففي أمريكا حرية للرأي والحوار، وفيها حرية للاعتقاد والعبادة ، وفيها الديمقراطية والمساواة بين المواطنين، وغير ذلك، ولا شك أننا نجد المسلم في أمريكا له الحرية في ممارسة عقائده وعبادته أفضل مما هو متاح في بعض الدول العربية والإسلامية وهذه الأمور في أساسياتها هي جزء لا يتجزأ من مبادئنا الإسلامية، واختلفنا مع العلمانية هو في كفرها بالله سبحانه وتعالى، وأرجو أن يعرف العلمانيون معنى الكفر حتى لا يتهموني بالجهل بالعلمانية ، كما أن اختلافنا معها هو في ابتعادها عن الدين الإسلامي، واتباع الأنبياء والصالحين ، واختلفنا معها في مبادئها التي فككت الحياة الأسرية والاجتماعية ، ونشرت الفساد الأخلاقي

والأمراض النفسية والمادية، وهذه الانحرافات ليست هامشية أو جزئية أو طبيعية ، بل هي كارثة ! فالكفر بالله سبحانه وتعالى أكبر الجرائم على الإطلاق، والفكر العلماني يجعل هذه الجرائم وغيرها هامشية، ويبالغ أيضا في حجم إيجابياته، ويقلل كذلك من إيجابيات الآخرين كمبادئ أو دول، وعندما سلط هذا الكتاب الأضواء على السليبات العلمانية فإنما كان هذا بهدف إثبات فشلها، ولا يتعارض هذا مع الموضوعية لأن إيجابياتها لا ننكرها ولم ننكرها.

4- ليس من الصحيح أيضا أن نجعل كل الإيجابيات في الواقع الأمريكي مصدرها العلمانية، فالتقدم التكنولوجي حققته عوامل كثيرة مثل التنافس الاستعماري، والحروب، والتنافس الاقتصادي بين الدول والشركات، وهذا لا ينفي أن يكون للعلمانية دور فيه، كما أن أمريكا دولة متأثرة بالفكر المسيحي، وهو يدعو إلى التسامح، وكذلك لليهود وإعلامهم في أمريكا دور كبير في الدفاع عن حرية الأديان والعقيدة حتى يكون لهم مكان ونفوذ وتأثير، واستفاد المسلمون بالطبع من ذلك، وأقصد من ذلك أن الواقع الأمريكي تأثر بعوامل كثيرة، وليس من الموضوعية أن نقول أن المبادئ العلمانية هي الوحيدة التي صنعت هذا الواقع.

5- ذكرت في كتاب عجز العقل العلماني أن العلمانية مبادئ خاطئة، وأن انتشارها يعود لمتاجرتها بالشعارات والأهداف العامة، وركوبها الحصان المادي، ولمساندتها من أوروبا وأمريكا، وهي دول قوية وغنية، ولقدرتها الفائقة على تشويه المبادئ الإسلامية والدينية وغير ذلك، فهي وبلا شك عملية تزوير متقنة تحتاج صفحات كثيرة حتى تثبت أنها مبادئ خاطئة، ولهذا قمت بتأليف هذا الكتاب "العلمانية في ميزان العقل".

6- يهمني أن أذكر أن نقدي الشديد والصريح للعلمانية لا يتعارض مع العلمية والموضوعية، بل هو جزء منها، ولنا في القرآن الكريم نموذج يحتذى في الصراحة والوضوح، وتسمية الأشياء باسمها ، فالضياع ضياع ، والكفر كفر، والجاهلية جاهلية، والنفاق نفاق، والصراحة مطلوبة لأن البشرية تشكو من الضياع العقائدي والضبائية الفكرية، فلا مكان للمجاملات، ولا أنطلق من غضب أو كراهية لفرد أو دولة، وما كان في كلامي مما يخالف كلام الله ورسوله فانا أراجع عنه فالكتاب دعوة للمخلصين للاحتكام إلى العقل وللتعمق في

دراسة العقائد والمبادئ حتى نستطيع بناء حياتنا كأفراد وأسر وتجمعات ودول على مبادئ صحيحة.

7- موقف الدولة العلمانية من الأديان السماوية قضى على استبداد الكنيسة ورجال الدين، وقضى على اجتهادات دينية خاطئة مسيحية أو إسلامية، وأضعف تأثير خرافات وأساطير منسوبة الى الأديان في الواقع الشعبي.... الخ فهذه إيجابيات ولا ننكرها، ولكن العلمانية أنتجت سلبيات أكبر من ذلك بكثير بإتباعها المناهج الفلسفية، كما أن هذه الانحرافات ليست أصلا من الأديان السماوية الصحيحة، فهي ترفضها وتحاربها، فالعلمانية أحرقت الأخضر واليابس، ثم تحاول أن تقنعنا أن النار التي أشعلتها أرحم وأحسن من الأشواك التي كانت في الأعواد اليابسة.

العلمانية ليست الأسلوب العلمي

قال الأخ العزيز حجاج بو خضور في جريدة الطليعة بتاريخ 15 ديسمبر 2001 " "العلمانية هي نهج اجتماعي متجدد مبدع مع كل تجدد حضاري وفكري، وهي إعمال العقل والمنطق الميسر والإدارة المثابرة والمساءلة العلمية الذاتية والمسئولية الواعية المجربة في شئون الدنيا بما يسرته الحضارة من إمكانيات وقدرات وخبرات متراكمة" وأقول هذه ليست العلمانية ، والعلمانية أبعد ما تكون عن الأسلوب العلمي والعلم، بل هي المنبع الأكبر للجهل والضياع ، واليكم الأدلة :-

1- يجب أن تتفق على أن للمصطلحات معان علمية محددة متفق عليها، فعندما نقول الإسلام أو الرأسمالية أو الشيوعية أو السيارة أو الطائرة..... الخ فنحن نتكلم عن مصطلح له معان معروفة، ومفاهيم محددة لا يجوز تغييرها، والعلمانية ليست كما عرفها الأخ حجاج بل هي حسب المراجع العلمية كما جاء في قاموس اكسفورد (العلمانية مفهوم يرى ضرورة أن تقوم الأخلاق والتعليم على أساس غير ديني)(1) وهي من مصادر أخرى (مأخوذة من كلمة secularism وتعنى الدنيا اوالدنيوية او اللادينية (2) وهي (حركة تاريخية حملت الأفراد من داخل المجتمع الغربي من المجتمع (الثيوقراطي) الديني إلى المدنية الأرضية، وفي هذا السياق لم يعد الإنسان مجبرا على تنظيم أفكاره وأعماله وفق معايير فرضت على أنها إرادات إلهية (3))

وأقول بأن أي تعاريف أخرى للعلمانية مخالفة لهذه المعاني غير صحيحة فالعلمانية ليست الأسلوب العلمي وليست العالمية أو العلمية أو الحدائثة أو العقلانية ، فهذا خلط للأوراق . فالعلمانية تعنى أننا كبشر قادرين على بناء دولتنا وحياتنا الشخصية وأنظمتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتحديد مواقفنا من الأحداث السياسية اعتمادا على عقولنا المجردة ، ولسنا بحاجة إلى رسالات سماوية ، وأنبياء حتى نعرف الحق من الباطل في هذه الأمور، ومعنى ذلك أن عقولنا قادرة على تحديد معاني العدل والحرية والمساواة وحقوق الإنسان، وتحديد مناهج الإصلاح بصورة أفضل وأعدل وأعلم مما أمرنا الله سبحانه وتعالى، بل إن الأديان السماوية هي منبع التعصب والتخلف والجمود والجاهلية والسذاجة قال تعالى: "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور"(40) سورة النور، فالعلمانية هي أقوال الفلاسفة واقتناعاتهم، وهي التي أنتجت الشيوعية والاشتراكية والنازية والرأسمالية والوجودية .. الخ وهذه كلها فلسفات جاهلية حتى ولو ظن أصحابها أنهم أهل علم وعقل وتفكير لأنهم لم يصلوا إلى حقائق فكرية وعلم وحكمة، بل وصلوا إلى آراء ونظريات وظنون وحلول وسط ، وجدل وحيرة وضياح . فالعلمانية جاءت كرد فعل لانحراف رجال الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى، فهي ليست شيئا مجهولا بل أحداث معروفة وواقع تم تطبيقه منذ عدة قرون في أوروبا وأمريكا، وانتج الرأسمالية، والشيوعية، والنازية ، والوجودية الخ .

2- لو كان العلمانيون يتبعون الأسلوب العلمي لوجدوا أن الأدلة العقلية أثبتت وجود الله سبحانه وتعالى ، وأثبتت صدق الأنبياء ، وبالتالي ما جاء به الأنبياء هو الصحيح، وهو مبني على العقل والعلم، وعلينا اتباع الإسلام وعقائده وشريعته والالتزام به. ولكن العلمانيين يريدون أن يبتعدوا عن العلم والصراط المستقيم، ومن خالف العلم فهو في جهل، ومن يريد أن يبني دولته أو حتى حياته الشخصية على أساس غير سليم، أي غير علمي فكأنه يقول أنا لا اعتقد أن خالق السموات والأرض العليم الحكيم، وخالقي وخالق عقلي قادر على أن يهديني للعلم والنور ومن حماقة والجهل أن يقولوا أن الإسلام دين صحيح، ولكننا لا نريد أن نطبقه بل نريد أن نطبق غيره مما يخالفه، ونريد أن نحبس في المسجد والحياة الشخصية، ونريد أن نأخذ قوانيننا وعقائدنا (حتى لو خالفت أمر الله سبحانه وتعالى) مما يقوله الفلاسفة المتناقضون أو التصويت الشعبي ممن يعترفون بأن

ما عندهم آراء ووجهات نظر وطن وليس علما. وهذا وغيره يثبت أن العلمانيين لا يتبعون العقل، ولا العلم، بل الظن والشبهات وردود الفعل.

3- لو كان العلمانيون يتبعون العقل لعارضوا الكنيسة فيما انحرفت فيه من نصوص، أو تعصب، أو مخالفة لحقائق مادية لا أن يتطرفوا ويرفضوا الدين كله، ولو كانوا أهل عقل لالتزموا بالدين الصحيح لا برفض كل دين، ولو كانوا أهل عقل لدرسوا الإسلام وتأكدوا أنه دين صحيح، فاتبعوه أو اثبتوا أنه دين خاطئ فرفضناه معهم، ولو كانوا أهل عقل لما تجاهلوا قضايا عقائديه هامة جدا وهي من خلق هذا الكون؟ ولماذا خلقنا؟ وأين تنتهي حياتنا؟.....الخ ولكنهم تجاهلوا هذه القضايا الكبرى، واعتبروها قضايا هامشية أو حرية شخصية، وهذا دليل عجزهم وجهلهم.

4- العلمانية لم تصنع الأسلوب العلمي، فالوصول للحقائق في العلوم المادية كالزراعة والكيمياء والطب.....الخ هو من خلال التجربة والمشاهدة والاستنتاج، وهذا شيء يعرفه البشر منذ قديم الزمان، ولا خلاف عليه بين أهل الأديان السماوية والفلاسفة وأبنائهم العلمانيين. والأخذ بأحدث العلوم المادية من حاسبات إلكترونية وطائرات ووسائل اتصال...الخ هو أمر لا خلاف عليه، وتأخذ به جميع الشعوب، وهي علوم تدرس في كل بقاع الأرض، ولا يوجد من يعارض تدريسها، ليس حاليا بل في تاريخنا الإسلامي كله تأخذ بما وصل إليه العلم المادي في ذلك العصر، ولكن العلمانيين يظنون أنهم من اخترع الأسلوب العلمي في مجال العلوم المادية، وما فعله الصينيون والمصريون القدماء والأتراك من نجاح في صناعات ومباني وفلك وأقمشة وزراعة أشياء معروفة ومشهورة وإنما يرجع الفضل فيه إلى التطور الهائل للعلوم التكنولوجية والتنافس القومي والاستعماري بين الدول الأوربية والى الحروب والتنافس الاقتصادي بين الشركات، وإشراك علماء المادة فيه، وهذا لا يمنع أن يكون هناك نصيب قليل للعلمانية فيه.

5- في جانب العقائد والأيدلوجيات من إسلام ومسيحية ورأسمالية وشيوعية واشتراكية.....الخ لم ينجح العلمانيون في تحديد الأسلوب العلمي للوصول للحقائق في المجال الفكري بل أخذوا يتبعون آراء ونظريات الفلاسفة قديما وحديثا، والغريب أن بعضهم أعلن صراحة

أن هذا الأسلوب فاشل، ولا يوصل إلى أي حقيقة فكرية، بل هو ينتج آراء متناقضة، فهذا يظن أن الله سبحانه وتعالى غير موجود، وأن الكون خلق صدفة، ثم ينتج نظرية شيوعية، وهذا يؤمن بوجود الله ولكنه يؤلف فكرا مخالفا له كالرأسمالية العلمانية، وهذا يرى بأنه ليس المهم أن تصل إلى الحقائق بل المهم أن نتجادل ومنتقد ونفكر، وانظروا إذا شئتم في كتب الفلاسفة حتى تضحكوا وتبكوا في أن واحد من شدة الجهل والضياع! فأين الأسلوب العلمي عندما نعتمد على الظن والآراء في بناء حياتنا ودولنا؟ ألم يدع الشيوعيون بأنهم أهل العلم ثم يكتشفوا بأنها من أسوأ وأجهل وأفشل العقائد والأنظمة، وإذا كانت الرأسمالية أقل جهلا من الشيوعية فهي لا زالت في دائرة الجهل فكرا و واقعا، فالإنسان الغربي من أكثر شعوب الأرض تعاسة وقلقا وأمراضا نفسية وطلاقا وتفككا اجتماعيا وبعدا عن الله سبحانه وتعالى، وانغماسا في الشهوات وحبا للمادة.

6- إذا كانت العلمانية فشلت في معرفة الأسلوب العلمي للوصول إلى الحقائق الفكرية، فإنه ليس لها فضل أيضا في ادعائها بأنها تنظر بشمولية وموضوعية في القضايا والأحداث، فهذا شيء نعرفه وطبقناه، فالله سبحانه وتعالى أمرنا بمعرفة الواقع والأحوال والظروف والبحث الميداني وتجميع المعلومات الصحيحة وتحليلها بصورة صحيحة ونحن ضد تقليد الآباء والأجداد في أمور تخالف الإسلام، ونحن ندور مع الحق حيث دار، ولا نتعصب لقبيلة أو شعب أو مسلمين أو مصالح طبقية أو أهواء شخصية، ومطلوب منا أن لا نتأثر بالحب والكراهية في الحكم على الأمور، ولو اختلف أحد الصحابة رضوان الله عليهم مع يهودي في موضوع، وكان الحق مع اليهودي لشهدنا له، وكلمة الاجتهاد تعني بذل الجهد الكبير في الوصول للحق، والصواب والتشجيع له كبير إلى درجة أن من يخطئ له أجر، وهذا ليس تشجيعا للخطأ، بل دعوة للتفكير والقراءة والتحليل، والآيات القرآنية التي تدعو للتفكير والقراءة والنقاش الموضوعي وتجميع المعلومات الصحيحة والتروي معرفة ومشهورة، وكل هذه أدوات علمية عرفناها وطبقناها، ولا ينقصنا كمسلمين اليوم إلا أن نعيد تطبيقها، وأقصد أنه ليس عندنا مشكلة أو نقص في معرفة الحقائق الفكرية والأدوات العلمية وأهمية العقل والاجتهاد والموضوعية، وبالتالي فإدعاء العلمانية بأنها اخترعت الأسلوب العلمي أو استخدمت العقل بصورة

صحيحة مجرد أكاذيب ليس لها أي سند من الحقائق بدليل أنها لم تصل إلى الحقائق الفكرية إلى يومنا هذا !!

العلمانية ليست ظاهرة كونية

يقوم بعض مؤيدي العلمانية بين فترة وأخرى بإعطائها تعريفات جديدة منها أنها ظاهرة كونية معقدة وبسيطة في آن واحد، وأنها تعني المجتمع المدني، وأنها شأن بالغ التعقيد والتنوع وأنها تعني حقوق الإنسان وسيادة الأمة والديمقراطية، ومبدأ فصل السلطات، وتعني الفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني... الخ. لم يصف هذا التفسير للعلمانية جديداً لأن هذه ليست العلمانية فالعلمانية تعني فصل الدين عن الدولة، وتعني رفض الإيمان الصحيح بالله سبحانه وتعالى، ورفض اتباع أنبيائه ودينه وهي تبني حياتها كدولة وأفراد على آراء واقتاعات الفلاسفة المتناقضين، وعلى الأهواء الشخصية، والشهوات، وهي المنبع الذي خرجت منه الشيوعية والاشتراكية والنازية والرأسمالية والوجودية والانتقائية... الخ. أي كل المبادئ الفاسدة، وهذا لا يعني أن كل ما تحت هذه المبادئ باطل وخطأ، بل هناك بعض المبادئ الصحيحة كالعدالة الاجتماعية في الشيوعية، والسيادة للأمة في الرأسمالية (ليست على إطلاقها)... الخ. أما القول بأن العلمانية تعني حقوق الإنسان والدولة المدنية فبالخلاف بين المبادئ في العالم هو في تعريف حقوق الإنسان لا في ضرورة أن تكون للإنسان حقوق فلا يحق إذن احتكار حقوق الإنسان ونسبتها للعلمانية، أما الدولة الإسلامية فهي دولة مدنية منذ خمسة عشر قرناً فهي لا يحكمها رجال الدين، لأنه لا يوجد طبقة اسمها رجال الدين، ولا يتكلم حكامها بالنيابة عن الله، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ويكتسبون شرعيتهم من الشعب، وعندما يفرح الأوروبيون بالقضاء على الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى فهذا من حقهم، ولكن ليس من حقهم القول أيها العالم نحن الذين اخترعنا الدولة المدنية. أما تعريف العلمانية بأنها ظاهرة كونية ليس مفهوماً، فهل معناه أنها منتشرة عالمياً، وهذا شيء صحيح، ولكن هذا لا يعني أنها مبادئ صحيحة، فقد كانت الشيوعية منتشرة عالمياً، ومع هذا سقطت في سنوات قليلة كما يسقط نمر من ورق. أما التعريف الجديد والغريب فهي إنها شأن بالغ التعقيد، والتنوع، لأن هذا التعريف يعني أنها شيء ضبابي ومجهول، وليس له ملامح محددة، فإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن الفكر العلماني

سيكون أشد تعقيداً وضبابية وسيكون أيضاً أكثر اختلافاً وضياًعاً وسيصعب علينا نحن أعداء العلمانية أن نوجه سهامنا لأنها ليست شيئاً واضح المعالم، وأرجو أن يتراجع العلمانيون عن تعريفها بأنها شأن بالغ التعقيد والتنوع لأنه من السذاجة أن يدعو الناس للاقتناع بشيء لا يستطيع العلمانيون أنفسهم فهمه، لأنه "معقد" كأن المطلوب من الناس أن يعطلوا عقولهم، وأن يثقوا بالعلمانيين ويتبعوهم بدون تفكير. والطريف أن تعريف العلمانية بأنها شيء بالغ التعقيد صحيح لأن العلمانية خلطت مواضيع كثيرة مثل العقل والعلم الفكري والفلسفة والعلم المادي والحرية والواقع والتاريخ والظلم والديمقراطية.. الخ. فهذا الخلط سيعطي صورة معقدة، لها فهي تفصل الدين وتبعده ومع هذا تقول بأنها ليست ضده، وهي تصفق لبعض آراء الفلسفة، وتكفر بآراء أخرى لهم، وتحديد ما يتم الإيمان به أو الكفر به من مبادئ متروك لعقل كل فرد يحدده كما يشاء، وهي تخلط العلم المادي بقضايا العلم الفكري قال تعالى: (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) ومن الأمور الخاطئة الظن بأن العلمانية قائمة على العلم المادي لأن البعض يصفها بأنها فكر مادي وقد يكون المقصود بهذا الوصف أنها مجردة من الإيمان والروحانيات، وليس لها اهتمام بالأخلاق، وهذا فيه جزء كبير من الصحة، أما إذا كان المقصود أنها قائمة على العلم المادي فهذا ليس بصحيح فلا علاقة للكيمياء والفيزياء والفلك والطب... الخ بالعلمانية فلم تثبت التفاعلات الكيماوية أن فصل الدين عن الدولة من الحقائق، ولم نصل من خلال علم الطب للتعريف التي تضعها العلمانية الرأسمالية للحرية وهكذا. ومعروف أن العلوم المادية موجودة في دول علمانية وإسلامية وبوذية، فنجد الكيميائي المسلم والكيميائي الشيوعي والكيميائي الرأسمالي، أما الظن أن العلمانية قائمة على العلم المادي بمعنى دراسة واقع الإنسان كحياته الاجتماعية والسياسية، ثم بعد ذلك استنتاج العقائد والقوانين المناسبة له، فهذا شيء صحيح، وهذا أحد أساليب الفلاسفة في الوصول إلى مبادئهم، وهذا أسلوب خاطئ لأن الإنسان ليس مادة نطبق عليها أسلوب الوصول للحقائق المادية في العلوم المادية كالفيزياء حيث من خلال التجربة والمشاهدة والاستنتاج نستطيع أن نعرف أن الماء يغلي عند مئة درجة مئوية ونعتبر ذلك حقيقة تطبق على كل ماء لأن الأمر يختلف مع الإنسان، فليس لك إنسان يشكرك إذا عملت له معروفاً، بل البعض يقابل الإحسان

بالجهد، فما هي الحقيقة التي سنصل إليها وتطبق على كل إنسان؟ ولو تأملنا في واقع الشعوب والدول فقد نتفق على بعض المبادئ والأحكام كالمساواة العرقية بين البشر، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وحرية الرأي المعتدلة، ولكن الغالبية الساحقة من المبادئ والعقائد لن تستطيع الاقتناع بصوابها من خلال هذا الأسلوب.

فدراسة الإنسان والشعوب والدول والتاريخ لن تحدد لنا صفات الله سبحانه وتعالى؟ ولماذا خلقنا؟ ولن تحدد لنا الحقوق والواجبات الزوجية العادلة؟ ولن تبين لنا كيف نربي أبناءنا تربية صحيحة؟ وكيف سنتعامل مع المال بطريقة صحيحة؟ وهكذا فالظن أن الوصول إلى المبادئ ينطلق من التأمل العقلي في الواقع ظن خاطئ لأن هذا الأسلوب لا يوصل أبداً إلى حقائق فكرية، فالعلمانية تحاول أن تثبت بأي شيء حتى تثبت صحتها، فهي تدعي انتسابها للعلم المادي، وهذا ليس بصحيح، وقالت أنها تعتمد على العقل، وهذا أيضاً ليس بصحيح وهي بالتأكيد لا تستمد شرعيتها من الله سبحانه وتعالى والعلمانية هي آراء الفلاسفة وهذه الآراء قائمة على الظن والشك والنسبية، وما أقوله يعترفون به، ولا أدري لماذا يخجل بعضهم من ذلك، ويصر على ربط العلمانية بالعلم المادي والفكري، ولا شك في أن العلم الفكري هو الذي جاء به الأنبياء كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، ولو كان العلمانيون يعقلون لما تركوا الأديان السماوية لأن هناك انحرافات حدثت من المنتسبين، لأن التصرف العقلاني هو الالتزام بالدين الصحيح، ومحاربة الانحرافات والمنحرفين باسم الدين. قال تعالى " (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل" (108) سورة يونس. وقال تعالى: "ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" (85) كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين (86) أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين" (87) سورة آل عمران.

ما هو الجهل؟

أ- ما هو الجهل؟ سؤال قد يبدو غريباً، وقد يظن البعض أن الجهل اختفى من واقع البشر لأننا في القرن الواحد والعشرين حيث هناك آلاف الجامعات ومئات الملايين من أصحاب الشهادات الجامعية، وآلاف المعاهد البحثية، وأقول بدايةً أنا لا أتكلم عن

العلم التكنولوجي من هندسة وطب وكيمياء.....الخ المتعلق ببناء المصانع والطائرات والمزارع والمستشفيات.....الخ بل أتكلم عن العلم الفكري المتعلق بالعقائد وحياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، هذا العلم الذي يتعلق ببناء الإنسان. إن الجهل لا يتم القضاء عليه بالجامعات والكتب والشهادات إذا كانت الاقتناعات التي تكونها يختلط فيها الحق بالباطل والصواب بالخطأ، وكذلك لا يتم القضاء على الجهل بمعرفة نظريات وأراء الفلاسفة والمفكرين لأنها أراء متناقضة ضائعة تختلط فيها الحكمة بالحماسة، والنور بالظلام، إن من لا يؤمن بوجود الله سبحانه وتعالى مع وجود الأدلة الكونية والمنطقية على وجوده وعظمته وعلمه وقدرته ورحمته..... الخ هو إنسان شديد الجهل حتى لو حصل على أعلى الشهادات الجامعية، ومن لا يعرف ما الهدف من خلق الإنسان؟ وما جاءت به الرسل من مبادئ وأحكام وأخلاق؟ هو إنسان جهل أسباب سعادته وشقائه ومن يجهل كيف يبني أسرته على أسس صحيحة من العدل في الحقوق والواجبات سيكون إنسانا تعيسا، ومن لا يعرف كيف يتعامل مع مصائب الحياة ونعيمها ومع مجتمعه وما فيه من الخير والشر سيقع فريسة لليأس أو الغرور أو الأنانية أو الكراهية أو الحسد أو الانتقام أو المظاهر أو التبذير أو غير ذلك، وهذه الثمرات المرة هي ثمرات الجهل، وهي أمور نشاهدها في حياتنا في كل يوم. إن العلم الفكري يتعلق بعلاقتنا مع الله سبحانه وتعالى وعلى أساسه نبني علاقاتنا مع طموحاتنا وشهواتنا ومصالحنا، وعلى أساسه نحدد موقفنا مما في هذا العالم من عقائد واقتناعات وأحداث وأفراد وأحزاب وحكومات....الخ ولاشك أبدا بأن أهم أنواع العلم الفكري هو معرفة الله سبحانه وتعالى بصفاته وأسمائه ولماذا خلقنا؟ وما هي سننه في الكون؟ وهذا يسمى علم التوحيد، فمن لا يعرف أساسيات هذا العلم هو من أشد الناس جهلا ، ومن هنا ندرك جهل كثير من العلمانيين حيث نجدهم يعرفون عن المال والتجارة والأفلام والملابس الكثير ويعرفون الكثير عن أمريكا وتاريخها ومناطقها وقوانينها وأحزابها وصناعاتها.....الخ، ولا يعرفون إلا القليل جدا عن الله سبحانه وتعالى وكتبه ورسله! قال ابن تيمية: " إذا نظر في كلام معلمهم الأول .. أرسطو .. وتدبره الفاضل العاقل لم يفده إلا العلم بأنهم من أجهل الخلق برب العالمين، وصار يتعجب تعجبا لا ينقضي ممن يقرن علم هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء" (1) وقال ابن تيمية: " وأما ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء

ألبته، وليسوا قريبين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم
بالأمور الإلهية، ولست أعني بذلك ما اختص الأنبياء بعلمه من الوحي
الذي لا ينال غيرهم، فإن هذا ليس من علمهم، ولا من علم غيرهم،
وإنما أعني العلوم العقلية التي بينها الرسل للناس بالبراهين العقلية
في أمر معرفة الرب وتوحيده، ومعرفة أسمائه وصفاته، وفي
النبوات والمعاد، وما جاءوا به من مصالح الأعمال التي تورث
السعادة في الآخرة فإن كثيرا من ذلك لم يشموا رائحتها ولا في
علومهم ما يدل عليها" (2)

(1) (2) ص 203 رجال الفكر والدعوة في الإسلام ج 2 الشيخ أبو الحسن الندوي

ولا يقتصر العلم على المعرفة، فمن يعرف الحق ولا يفعله فهو جاهل
قال تعالى: " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار
يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي
القوم الظالمين " (5) سورة الجمعة كما أن هناك فرقا كبيرا بين
الثقافة الفكرية والعلم فالثقافة هي أن تعرف عقائد ومبادئ وأحكام
الإسلام والمسيحية والرأسمالية والشيوعية والبوذية..... الخ
ولكنك لا تدري أي هذه المبادئ صحيحة؟ فالثقافة تعطيك معلومات ،
والعلم يعطيك حقائق ويعترف العلمانيون بجهلهم عندما يقولون بأن
ما يؤمنون به في مجال العقائد والمبادئ إنما هي آراء قالها فلاسفة
ومفكرون، وليست حقائق أي علم، ومن الجهل أن يتمسك
العلمانيون بالعلمانية مع اعترافهم بأنها توصلهم لآراء والأكثر من
ذلك جهلا أنهم يقولون لا توجد في المجال الفكري حقائق! وهذا
يعني أننا لن نصل إلى المعاني الصحيحة للعدل والحرية والأنظمة
الاجتماعية الصحيحة..... الخ وبالتالي فلنستسلم للظن والشك
والنسبية والحلول الوسط وأهواء ورغبات المجالس النيابية
والمصالح والعصبية..... الخ قال تعالى: " وما لهم به من علم إن
يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا " (28) سورة
النجم. قال ابن تيمية " بل قد صرح أساطين الفلسفة ، بأن العلوم
الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين ، إنما يتكلم فيها بالأحرى والأخلق ،
فليس لهم فيها إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا " (1)
فالعلماني الصادق يسير على أسس خاطئة حتى لو كانت نواياه
طيبة، وقد قيل كم مرید للخير لن يصيبه، وقيل الطريق إلى جهنم
مفروش بالنوايا الحسنة.

ب- كارثة الآراء: الذين رفضوا الإسلام واتبعوا عقولهم العلمانية وصلوا إلى اجتهادات بشرية تجسدت في عقائد كالرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والنازية والوجودية..... الخ مما أنتجته عقول الفلاسفة والمفكرين قال الدكتور يوسف القرضاوي "ومن ذلك كثير من نتائج العلوم الإنسانية والاجتماعية التي يريد بعض دارسيها أن يلبسوها ثوب العلم اليقيني وهي ليست أكثر من استنتاجات، مبنية على مقدمات غير يقينية قد يقبل بعضها ويرفض بعضها وقد ترفض كلها" (2)

(1) ص 202 رجال الفكر والدعوة في الإسلام ج 2 الشيخ أبو الحسن الندوي

(2) ص 63 الإسلام والعلمانية وجهها لوجه د. يوسف القرضاوي

ولقد شجعوا العقل على التفكير والحركة والحرية ولكن انتهى العقل العلماني من حيث بدأ.... أي لا يدري أين الحق؟ ولا كيف نصل إليه؟ ولم يعط إجابات محددة للأسئلة الكبرى التي تواجه الإنسان وهربوا من ذلك وقالوا النظريات والآراء كثيرة فاختر ما تشاء منها وطبقه على نفسك وإذا تعمقنا فيما قالوا سنكتشف أن ما يقولونه كارثة علمية ومصيبة كبرى ومعناه أنه لا يوجد علم ولا يوجد جهل فكلها آراء خذ ما تشاء منها، وإذا كانت العلمانية توصلنا إلى آراء متناقضة فإنه لا يوجد ما يحتاج أن ندرسه أو نتعلمه غير آراء متناقضة لكل واحد منها حججه، ولن يوجد هناك علماء لأنه لا يوجد علم أصلاً، فعلماءؤهم فلاسفة متناقضون. وجعلوا العالم عندهم هو الذي يقرأ ويكتب ويجادل ويعرف ماذا قال هذا الفيلسوف، أو ذاك الكاتب أي جعلوا الثقافة علماً وهذا هو ضياعهم وكثيرون يجهلون أن العلمانية هي الفلسفة، وأن الفلاسفة هم الذين أنتجوا العقائد الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والنازية..... الخ وتناقض آرائهم جعلت باسكال يقول "الفلسفة كلها لا تستحق ساعة تعب" والتفلسف الحقيقي هو الهزء من الفلسفة "والفلسفة مضيعة للوقت" (1). ولو انتقلنا إلى بعض الجهل الذي يردده بعض العلمانيين من العرب عندما يحاولون أن يقنعونا بأن اختلافات المسلمين كثيرة أي أننا مختلفون حول كل شيء، وأن كل ما عندنا آراء ونقول هذا غير صحيح، فنحن متفقون على كل ما في القرآن والسنة من حقائق تتعلق بصفات الله وأسمائه والجنة والنار والحياة الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية ومعاني العدل والحرية وغير ذلك كثير، كل هذا عندنا حق وحقائق ونور وصواب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما الاختلاف الاجتهادي في الإسلام فله ضوابط وهو ضمن حدود، وللاجتهاد أهله من العلماء المسلمين وهو في قضايا فرعية، وليست رئيسة قال د يوسف القرضاوي "ليس الإسلام دعوة غامضة، ولا مادة هلامية، يفسرها كل من شاء بما شاء، فالإسلام له أصوله البينة الثابتة، ومصادره الواضحة المحكمة" (2)

(1) ص 128 المقدمة في فلسفة الدين الأستاذ أديب صعب

(2) ص 24 الإسلام والعلمانية وجهها لوجه د. يوسف القرضاوي

ومن أساليبهم الغربية أنهم يأتون لحقائق واضحة مكتوبة بلغة عربية فصيحة فيجادلون في معانيها ويرفضون ما أتفق عليه علماء المسلمين فهم يريدون أن يجعلوا الإسلام آراء، فتراهم يجادلون في معنى الربا وفي شرعية الحجاب، وفي قتل المرتد وفي شرعية الحدود..... الخ.

ج- الجهل العلماني الأمريكي: نجح الأمريكيون في الوصول إلى حقائق مادية كثيرة في المجال الصناعي والعسكري والزراعي..... الخ ووصلوا كذلك إلى معرفة حقائق واقعية كثيرة تتعلق بأوضاع الدول والشعوب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ووصلوا وطبقوا حقائق كثيرة في علم الإدارة. ولكنهم من أكثر شعوب الأرض جهلا في مجال الحقائق الفكرية لأنهم علمانيون، وكل ما عندهم من اقتناعات ومبادئ فكرية لا تزيد عن نصف صفحة لعل أهمها فصل الدين عن الدولة والاحتكام للشعوب في التشريع واتباع الفلاسفة المتناقضين، ورفع شعارات الحرية والمساواة والعدل، وافعل ما تشاء في الجانب الاجتماعي فهذه حرية شخصية واترك القضايا العقائدية لأنها ما وراء الطبيعة ففي هذه السطور القليلة اختصروا العلم الفكري، ومن خلال هذه السطور يتعاملون مع الحياة فكل ما يتعلق بالله سبحانه وتعالى لا يعرفونه؟ ويجهلون كيف ننظم حياتنا الاجتماعية؟ وكيف نتعامل مع المال؟ وكيف نحارب التعصب العرقي والتبذير والكذب والغيبة والغرور والخيانة الزوجية؟ ولماذا أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل؟ وما في التوراة والإنجيل والقرآن أمور لا يعتبرونها هامة ولو كان العلم الفكري يختصر في نصف صفحة وان هذا هو الحل السحري للقضايا التي تواجه الإنسان لما

أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل للبشر يعلمونهم العقائد والأحكام والأخلاق بل أن هذا الحل السحري لم يقبله الفلاسفة (علماء العلمانية) بدليل أنهم ألفوا الكتب حول الخالق والحياة والحرية والعدل والظلم والخير والشر..... الخ قال سقراط "إنني جاهل، وأعرف إنني جاهل، وأما هم فجهلة ويجهلون أنهم يجهلون" وقال آلان ود "برتراند رسل فيلسوف بدون فلسفة" (1) أي لم يصلوا إلى علم، وقال جوليان هكسلي "يجب أن نستعد لمواجهة الحقيقة وهي أن جهلنا بالحقائق النهائية سوف يستمر إلى الأبد بسبب فطرتنا المحدودة" (2)

(1) ص 29 الدين في مواجهة العلم الأستاذ وحيد الدين خان

(2) ص 93 الدين في مواجهة العلم الأستاذ وحيد الدين خان

وأقول الأسلوب العلماني لا يؤدي إطلاقاً إلى الوصول للحقائق الفكرية. وقال تعالى: "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" (40) سورة النور.

العلمانية لم تصنع العلم المادي يظن كثير من الناس أن العلمانية هي أم العلم المادي، وأن من يتبنى العلمانية سيتقدم علمياً وتكنولوجياً، وسيحقق التنمية والرخاء، وهذا من الأخطاء الشائعة وإليكم الأدلة:

1- من المعروف أن الإغريق حققوا نجاحاً علمياً جيداً في الرياضيات والفلك والإنشاءات والطب... الخ وهذه أمور تحققت قبل العصور الوسطى بقرون، كما أن الاختراعات والتقدم العلمي كان موجوداً في الصين ومصر الفرعونية والخلافة العباسية والدولة الأموية في الأندلس، فكان هناك صناعة وتجارة وزراعة فالأقمشة أشكال وأنواع وألوان، والمنتجات الزراعية، بضائع يتم المتاجرة بها، وهناك عجائب الدنيا السبع.. الخ. وكل هذا كان وراءه علم وتكنولوجيا وتجارب وتفكير وكتب، وصحيح أن حجم هذا العلم محدود بما نعرفه اليوم، ولكن كان هناك علم وتكنولوجيا، فالعلمانية ليست أم العلم المادي، ولا حتى خالته!!

2- التصادم الذي حدث بين رجال الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى وبين بعض علماء المادة لم يكن صراعاً يشمل عداً لكل

أنواع العلم المادي بل لأجزاء منه ظن رجال الكنيسة أنها تتعارض مع العقائد المسيحية بدليل أنه كان في أوروبا تقدم في مجال البناء والزراعة والأسلحة، ولا زلنا نشاهد مباني راقية في كثير من الكنائس المبنية منذ أكثر من ألف سنة، فالكنيسة لم تكن ضد العلم المادي بل ضد أجزاء صغيرة منه ولكن العلمانية نجحت في إقناع الناس بأن رجال الكنيسة ضد العلم، وضد التقدم، وضد العقل... الخ وقد يكون الناس استجابوا لذلك ليس تصديقاً لما يقول العلمانيون بل رغبة منهم في رفع ظلم رجال الكنيسة والإقطاع عنهم أي أن المسألة ليست ذات علاقة كبيرة بموقف الكنيسة النظري من العلم المادي، بل ذات علاقة بواقع التطبيق العملي في أوروبا، وتشجيع العلمانيين على العلم المادي، وتقدير علمائه كان محاولة لإيجاد عقيدة ومبادئ ينطلق منها العلمانيون في صراعهم مع الكنيسة، والطريف أن العلمانية ليست قائمة أصلاً على العلم المادي حتى ولو ادعت ذلك، فهي قائمة على عقائد واقتناعات الفلاسفة فيما يتعلق بالعقائد والاقتناعات والأحكام في حين العلم المادي يتعلق بالطب والهندسة والزراعة والفلك.

3- عاشت العلمانية عدة قرون بدون أن تشهد ثورات علمية، فبقى العلم المادي نشاطاً فردياً، ولكن لا شك في أن العلمانية ساهمت في إعطاء علماء المادة مزيداً من الاحترام والتقدير، ولم تضع حدوداً لآرائهم وتقدمهم وهذا الفضل يحسب لها، ولكن كما وضحت لا يعني هذا أن علماء المادة كانوا مختنقين قبل ذلك. والذي حدث وأدى إلى بعض التغيرات العلمية الكبيرة هو تنافس الدول الأوروبية الاستعمارية فيما بينها على احتلال أكبر مساحات ممكنة في آسيا وأفريقيا مما شجع صناعة السفن وعلوم الفلك، وتطوير الأسلحة، فالعلم المادي دخل ساحة الصراع السياسي والعسكري ولم يعد يهم علماء المادة وحدهم.

4- أدركت الدول والشعوب وخاصة في بداية القرن العشرين أن التطور العلمي هو الدجاجة التي تبيض ذهباً وهو الكنز الحقيقي، فاختراعات أديسون حققت أرباحاً هائلة، وتطوير الأسلحة أصبح الوسيلة الرئيسية لكسب الحروب ولهذا اتجهت الشركات والحكومات للاستثمار الكبير في البحث العلمي مما أحدث الثورات الكثيرة في القرن العشرين في حين أن العلمانية كان عمرها على الأقل أربعمئة سنة، وهذا دليل على أنه لا يوجد ترابط بينهما إلا في

جانب محدود. ومن المعروف أن الحروب تحقق قفزات علمية ونسبة عالية مما يصرف على البحث العلمي يصرف في مجال الأبحاث العسكرية ويستفاد من نتائجها في المجال المدني بصورة مباشرة وغير مباشرة.

5- حدوث التطورات التكنولوجية في دول علمانية لا يعني أن العلمانية نفسها هي وراء ذلك، بل العوامل الأخرى التي ذكرتها، فروسيا الشيوعية وكذلك الصين حققنا نجاحات علمية كبيرة مع أن الدول العلمانية الرأسمالية تعتبرانها دولتين غير علمانيتين، وحققت اليابان بعقائدها البوذية نجاحات تكنولوجية كبيرة، أما دولنا الإسلامية فالغالبية الساحقة منها لم يتح لها الاستقرار العقائدي والسياسي والاقتصادي لتقوم بالبناء التكنولوجي، ورغبنا كدول وكشعوب في تعلم العلوم التكنولوجية واضحة بدليل تخصص كثير منا في الهندسة والطب والكيمياء والحاسب الآلي، ولم يقف الإسلام معارضا لذلك، بل مشجعا له وهذا يثبت أن المشكلة لم تكن إطلاقاً في وجود تعارض بين الدين والعلم المادي ولكن بعض العلمانيين لا يزال يصر على تزوير الحقائق!!

الإسلام والتصادم مع العلم

كثيرا ما تطرقنا إلى العلمانية واتهاماتها وأوهامها فقد اتهمت الإسلام بأنه ضد العقل وهذا الاتهام باطل وإليك الأدلة :-

1- من الخطأ أن نقول أن الإسلام ضد العقل لأنه لا يوجد هناك عقل واحد له عقائد ومبادئ محددة ومعروفة يحتكم لها البشر فالعقول البشرية بعدد البشر، وهي عقول مختلفة ومتناقضة في مبادئها، فهناك عقول تتفق مع الإسلام، وهناك عقول تتناقض معه إذا المفروض أن يتهم الإسلام أنه ضد العلم وليس العقل والعلم ينقسم إلى حقائق مادية وحقائق فكرية والسؤال الذي يطرح نفسه هل يتعارض الإسلام مع هذه الحقائق وإذا كان الأمر كذلك ننتقل إلى النقطة الثانية.

2- أثبتنا وأثبت غيرنا من البشر ومنهم كثير من العلمانيين أيضا أن وجود الله سبحانه وتعالى حقيقة أي علم وأثبتنا أن محمد بن عبدالله رسول الله بما جاء معه من أدلة منها إعجاز القرآن وصدق تنبؤاته، وعظمة سيرته الخ أي أن صدقه حقيقة وبالتالي فكل ما جاء في

القرآن والأحاديث الصحيحة حقائق أي علم، أما اجتهادات علماء الإسلام فهي تصيب وتخطئ، فما كان منها خطأ يرفض، وما كان منها حقيقة (علم) يقبل، والذي يحدد ذلك هو العقل الإسلامي الذي يستند في ذلك للقرآن والسنة وحقائق الواقع والتحليل والتفكير أي الاجتهاد، أما الآراء والاجتهادات العلمانية فهي آراء الفلاسفة، ولا توجد أسس صحيحة لها فهي في اعترافهم آراء تصيب وتخطئ وليست علما (حقائق) أي هي ظن، وليست يقينا وهذا لا يعني أنها كلها خطأ، ولكن لا أحد يستطيع أن يثبت أن هذا الرأي أو ذاك هو علم أو جهل، فإذا تعارضت الآراء العلمانية مع الحقائق الإسلامية الفكرية فالآراء خاطئة.

3- عندما يقال إن هناك حقائق مادية تعارض الإسلام فإن هذا معناه إما أن يكون هناك خطأ في الإسلام وهذا أمر مستحيل، أو أن هناك خطأ في الحقيقة المادية، وهذا مستحيل إذا كانت فعلا حقيقة، إذن التعارض مستحيل، ومما يثبت ذلك أننا نطالب أولا بتحديد أين يوجد هذا التعارض، أي اذكروا لنا الحقائق الإسلامية التي تتعارض مع الحقائق المادية، هل هي في مجال الفلك أو النبات أو الطب أو الفيزياء؟ طبعا لا توجد أي حالات يقينية! أما القول بأن نظرية دارون في خلق الإنسان تتعارض مع آيات قرآنية، فهذه نظرية لم تثبت أن الإنسان تطور من قرد أي ليست هذه حقيقة علمية مادية، أما إثباتها بأن هناك تدرج في الكائنات فهو أمر لا نستطيع من ناحية إسلامية فكرية إثباته، أو نفيه لان الآيات لم تتطرق لهذا الموضوع حسب علمي وهذا التدرج خاضع لإثباته أو نفيه للعلم المادي وأدلته. وعموما فنحن عندما نتكلم عن الحقائق الإسلامية لا نتكلم عن تفسيرات لآيات أو أحاديث فهذه اجتهادات، بل نتكلم عن حقائق واضحة.

4- أي قارئ للقرآن الكريم حتى ولو لم يكن مسلما يعلم أن الكتب السماوية هي كتب تتكلم عن العلم الفكري أي عن صفات الله سبحانه وتعالى وأمره وشريعته ونظم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاق وقصص الأنبياء، وان تطرقها للعلوم المادية كالسماوات والأرض والكائنات.... الخ هو محدود، وهو تطرق ليس فيه ما يعارض أي علم مادي معروف. فهي إذن كتب ليست مختصة بالعلوم المادية، وبالتالي فاحتمال أن يوجد تعارض ضعيف بحكم اختلاف العلم الفكري عن العلم المادي، فالمسألة في حقيقتها أن

العلمانيين يناقشون الموضوع ليس لأن هناك تعارض علمي، بل بدوافع سياسية وفكرية ومصالح لدول أو اتجاهات فكرية، أو أحزاب، أو أفراد تريد أن تحارب الإسلام، ولا تريد أن تبحث عن الحق ولا تريده !!

5- أقول وأكرر مطلوب من كل من يتهم الإسلام بأنه يتعارض مع الحقائق المادية أن يحدد أي الحقائق المادية التي تعارض آيات أو أحاديث حتى يتم نقاش الموضوع بصورة واضحة، أما محاولة إيهام الناس بأن هناك مشكلة أو مشاكل كبيرة في وجود تعارض بين الإسلام والعلم المادي فهو كلام لا يصدر إلا عن جاهل أو كاذب بدليل أن تعامل المسلمين كدول وأفراد مع العلم المادي قديما وحديثا تعامل طبيعي، ولم يجدوا فيه أي تناقض أو حيرة فكرية أو تشكيك في إيمانهم، فنجد المسلم المهندس والمسلم الطبيب والمسلم الكيميائي ونجد تشجيعا إسلاميا كبيرا على التأمل في الكون والكائنات، وعلى تشجيع العلم المفيد بكافة جوانبه، ونجد الدعوة لاكتساب القوة المادية بكافة أنواعها وهذا وغيره يثبت أنه لا توجد إطلاقا مشكلة حقيقية بين إسلامنا والعلم المادي، وهذه حقيقة نشاهدها كل يوم بأعيننا في كل مكان، وإذا أضفنا إلى ذلك أن علماءنا كتبوا الكثير قديما وحديثا ينفون أي تعارض بين الإسلام والعلم المادي، وناقشوا شكوك واتهامات في هذه المواضيع وفندوها فالمسألة إذن لا تزيد عن عناد وجهل ومصالح سياسية وليس فيها من الحق والموضوعية شيء.

6- من المعروف أن العلم المادي يتعامل مع مجالات الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء والزراعة..... الخ مما يسمى العلوم التجريبية وهذا العلم وأدواته عاجزة تماما عن إثبات أو نفي الحقائق الفكرية والتاريخية فهو ليس باستطاعته معرفة ماذا حصل من أحداث قبل ألفي عام مثلا فهناك حقائق تاريخية لا ولن يعرفها العلم المادي لأنه لا يوصل لها طريق التجربة والمشاهدة والاستنتاج، وإذا عجز العلم المادي عن إثباتها فلا يعني أنه ليست هناك حقائق تاريخية حدث فيها قتل أو خيانة أو كذب أو صدق أو وفاء أو سرقة.... الخ وهناك في المجال الفكري حقائق: فوجود الله سبحانه وتعالى حقيقة فكرية، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة، وكل ما في القرآن والسنة حقائق فكرية، فالوصول للحقائق الفكرية يتم بمناقشة أسس وأصول المبادئ والعقائد الدينية والعلمانية وما

لديها من أدلة عقلية. ونقول العلم المادي عاجز عن إثبات صواب أو خطأ الرأسمالية والشيوعية والنازية وبقية فروع العلمانية لأنه لا يمكن إدخالها المختبرات، وفحصها وعجز العلم المادي ليس دليلاً على عدم وجود حقائق في المجال الفكري لأننا لو قلنا ذلك فهذا يعني أننا لن نصل إلى معرفة ما هي الحرية أو العدل أو حقوق الإنسان ولن نستطيع أن نقول الزواج حق والزنا باطل وليس لدينا دليل علمي على أن السرقة والكذب وحتى القتل رذائل وجرائم وهذا ليس بصحيح والظن بأن العلم يقتصر على العلم المادي فقط هو بحد ذاته كارثة علمية، فوجود الله سبحانه وتعالى هو أكبر وأهم حقيقة في الكون، ومع هذا لا نستطيع إثباتها في المختبر، ولكن هناك نجوم وكواكب ومجرات وأرض وكائنات مادية محسوسة تثبت وجود خالق عليم وعظيم، فهذا دليل علمي عقلي وتعجز المختبرات عن إثبات إعجاز القرآن العظيم ولكن هذا شيء يعرفه علماء اللغة العربية، ونعرفه من عجزنا كبشر على عمل قرآن آخر مع مالدينا من علماء في اللغة وغيرها، ويعلم أيضاً العقلاء أن شريعة الإسلام وما فيها من اعتدال وعمق ورحمة وحزم ومرونة وواقعية وأخلاق..... الخ شريعة راقية، ودليل على عظمة الخالق، وصدق الأنبياء لأن عقول المفكرين والفلاسفة عجزت حتى يومنا هذا على إنتاج مبادئ وشريعة تحقق حتى خمسة بالمائة مما جاء به الإسلام.

الدين العلمي

من التهم الطريفة التي يطلقها العلمانيون هو اتهام المسلمين بأنهم مقتنعون بأنهم أهل الحق والحقيقة والصواب وأن الآخرين على باطل وخطأ ونعترف أن هذه التهمة صحيحة إذا كان الحديث عن العقائد والمبادئ الأساسية وهي ليست صحيحة إذا كان الحديث عن اجتهادات إسلامية فكرية أو سياسية لدولة أو جماعة أو عالم. وشدة "اقتناع وإيمان" المسلم بمبادئه شيء طبيعي مقارنة "باقتناع وإيمان" العلماني بمبادئه وما فيها "من حقائق" لأن الفكر العلماني قائم على الظن والشك وأقوال الفلاسفة فهو آراء وليس حقائق وبكلمات أخرى كلها اجتهادات تحتل الصواب في اعتقادهم وكذلك تحتل الخطأ، وهم يعترفون صراحة بأن عقولهم لم تصل إلى حقائق فكرية يجب الإيمان بها، وان الاحتكام في المبادئ والتشريعات عندهم خاضع للتصويت لا للعقل، وأحياناً يقولون إن الحقائق نسبية، وهذه كارثة عقلية وعلمية، فمتى كان الحق

والصواب نسبيا فما دام أن مبادئهم وعلمهم مشكوك في صحتها فالمسألة نسبية لأنها مقارنة بين سئ وأسوأ وفي المقابل نجد المسلم مقتنعا ببناء على عقله وأدلة عقلية على وجود الخالق وصدق الرسل وأن ما يؤمن به هو حقائق لا يأتيها الباطل والشك والظن لا من أمامها ولا من خلفها فمن الطبيعي أن يكون واثقا منها. والفكر العلماني قائم على انه لا أحد يملك الحقيقة ، لا العلمانيون ولا الإسلاميون وبكلمات أخرى كلنا جهلاء، ومن يدعى أنه عالم فهو مخطئ، وفي نفس الوقت واثقون "من علمهم" ومفاهيمهم عن الحرية والعدل والإصلاح وحقوق الإنسان..... الخ ويدافعون عنه ولو طبقنا الإقتناعات العلمانية في القضايا المادية وجعلنا كل الحقائق المادية التي وصل لها البشر في علم الفيزياء والكيمياء والفلك والطب والزراعة..... الخ آراء مادية لا يجوز لمن وصل لها اعتبارها حقائق، ومن يدعى أنها حقائق فهو يحتكر العلم، وهو شخص مغرور، فإن هذه الإقتناعات يرفضها حتى العلمانيون لأنهم يعلمون أنها حقائق، ويعلمون أن الفيزيائي يتكلم بثقة واعتزاز عن المبادئ والقوانين التي تتحكم في المواد، وأنه ليس على استعداد للتنازل حتى عن بعضها أملا في التقرب للآخرين ، أو لإرضاء من لا يفقه في الفيزياء ، ونقول إن المسلم يؤمن بأن مبادئه حقائق، وأنه يعرف علم السعادة ، وعلم العدل، وعلم الحرية، وعلم العبادة..... الخ ويعلم أن ما يخالفها من عقائد ومبادئ وشرائع علمانية أو دينية خاطئة ، فالدين علم وليس آراء، وقد جاءت كلمة علم ومشتقاتها في القرآن مئات المرات قال تعالى: "أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب" (19) سورة الرعد، وقال تعالى: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" (9) سورة الزمر وقال تعالى : من بعد ما جاءك من العلم" (145) سورة البقرة، ومن الأخطاء القاتلة هو الظن بأن العلم science سيقصر فقط على العلوم المادية كالكيمياء والفيزياء والطب والهندسة.... الخ وتسمية كلية "العلوم" تنسجم مع هذا الاقتناع كأن التخصصات الأخرى "ليست علمية" أي لا يوجد فيها علم، وهذا الاقتناع صحيح لدرجة كبيرة في العالم الغربي حيث تنقسم عندهم العلوم إلى قسمين رئيسيين، قسم العلوم المادية، وقسم العلوم الاجتماعية، والقسم الأول قسم يتم التوصل لحقائقه من خلال التجربة والمشاهدة والاستنتاج، ويشمل مجالات الكيمياء والفيزياء والأحياء وغيرهم، أما المجال الثاني فهو الفكر العلماني،

ويشمل الدراسات الفلسفية والعقائدية والاجتماعية والنفسية، وهم لم يتوصلوا فيه إلى حقائق بل نظريات وآراء فهو يبين ماذا قالت هذه المدرسة الفلسفية أو تلك وماذا قالت هذه النظرية أو تلك ورأى هذا الفيلسوف أو ذاك تاركين في النهاية لكل شخص يقرر ما يرى أنه صواب، ولا يوجد هناك علم يتم الدفاع عنه. قال أبو الحسن الندوي: يعتقد ابن تيمية أن المتكلمين والفلاسفة كلهم إنما ارتكبوا نوعاً واحداً من الخطأ، وأن خطة عملهم واحدة بالرغم من جميع الخلافات التي توحد بينهم، إن خطأ كل من هؤلاء وضعفهم أنهم حاولوا أن يعتمدوا على الحدس في الحصول على الشيء الذي لا يحصل بالحدس والتخمين، وصارعوا الفطرة والنبوة كليهما، ولذلك فإن تحقيقاتهم إثمها أكبر من نفعها" (1)

(1) ص 212 رجال الفكر والدعوة في الإسلام - الجزء الثاني - أبو الحسن الندوي

قال ابن تيمية " للمتفلسفة في الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات، فإنهم أجهل الناس بها وأبعدهم عن معرفة الحق فيها، وكلام أرسطو معلمهم فيها قليل كثير الخطأ " (1) وليس غريباً إذن أن يتأثر بعض شبابنا ممن درسوا في الغرب بهذه الاقتناعات ويعتبروا كلمة علم تنطبق فقط على المجالات المادية كأن المجالات الفكرية ليس فيها علم، ونقول علمنا منطلق من قضيتين أساسيتين هما وجود الأدلة العقلية على وجود الله سبحانه وتعالى، وهذه الحقيقة يؤمن بها الأغلبية الساحقة من البشر بغض النظر عن صفات الله سبحانه وتعالى عندهم، وكذلك قامت الأدلة العقلية أيضاً على أن محمداً بن عبد الله رسول الله، وبالتالي فكل ما في القرآن والأحاديث صحيح، ونذكر هنا أن مبدأ وجود الرسل هو أيضاً مبدأ متفق عليه بين الغالبية الساحقة من البشر بغض النظر عن عدد الرسل الذين يؤمنون بصدقهم كما أضيف إلى ذلك أن عندنا كمسلمين بناء على القرآن والسنة أن موسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهما أنبياء، وأن التوراة والإنجيل من الكتب السماوية وأن ما بهما حقائق فكرية، ولكن حدث بعد ذلك تغيير في بعضها، والمقصود أن الحقائق الفكرية السماوية المشتركة بين الأديان السماوية كلها علم وحقيقة، وليست آراء، ولو لم يكن علماً لما آمنا به فصفات الله سبحانه وتعالى التي جاء ذكرها بالقرآن والأحاديث هي حقائق وليست أساطير أو آراء أو ظنون، وكذلك

بالنسبة لواجباتنا وأحكام شريعتنا فهذه حقائق فكرية أي علم إذا التزمنا بها وطبقناها في حياتنا حققنا السعادة والنصر والقوة والعدل والحرية..... الخ وأي مبادئ علمانية مخالفة للإسلام هي الجهل، وبالتالي لو طبقناها في حياتنا فسنحصد التعاسة والهزيمة والضعف والظلم والعبودية، وما نقوله ينطبق على الفرد والأسرة والحزب والدولة وهو لا يتناقض مع ما يحدث في واقعنا والعلو فيه يرجع إلى حجم ما يتم أخذه فيه من حقائق مادية وفكرية أي ما يأخذ من أسباب مادية وإيمانية فالذي يعقلها ويتوكل على الله ينجح، ويكون على القمة، والناس والدول يتفاوتون في أخذهم بالأسباب الإيمانية والمادية ولهذا يتفاوتون في القوة والغنى والعز والذل والسعادة والتعاسة. ومن المعروف أن نصيب أغلب دولنا الإسلامية ضعيف في أخذنا بالأسباب الإيمانية والمادية معا، ولهذا أغلبها في مؤخرة الدول في سلم النجاح والفشل ومن المعروف أيضا أن أمريكا مثلا متقدمة جدا في العلوم المادية ولهذا تحقق خطوات كثيرة للأمام كما أن لديها بعض النجاح الفكري في قضايا الشورى والحرية والعدل وهذا لا يمنع وجود فشل ذريع لها في أغلب القضايا الفكرية العقائدية والاجتماعية ولهذا يعتبر الأمريكي من أكثر الناس تعاسة. وبعيدا عن جدل العلمانيين والفلاسفة فالمسلم الملتزم بالإسلام هو نموذج واقعي مشاهد عن بعده عن المخدرات والخمر والزنا والكذب والظلم والنفاق..... الخ. وهو إنسان صادق وأمين ومجتهد في عمله وبار بوالديه وأسرته ومحترم في عائلته ومجتمعه وحكيم في قراراته ومتحكم في تصرفاته وفعال في مجتمعه فهذا النجاح الشخصي حدث لأنه ملتزم بعلم، ويعيش على نور وهداية وبصيرة وعقلانية.

عجز العقل العلماني

نفهم أن يتحدث فرد باسم حكومة أو شعب أو حزب أو دين أو مؤسسة أو غير ذلك وقد يكون ممثلا نموذجيا لمن يتحدث باسمهم أو لا يكون ولكن الغريب أن بعضهم بني آدم كالعلمانيين جعلوا أنفسهم الممثلين الوحيدين للعقل البشري، وكان عندنا شيء أو مجسم محدد اسمه العقل، وأن هذا له اتباع وأولياء يمثلونه ويتكلمون باسمه، ويحق لهم تحديد المؤمنين بالعقل والكافرين به. وهؤلاء يجهلون أو يتجاهلون أن عندنا بلايين من العقول البشرية، وكلها عقول بشرية سليمة مائة بالمائة من الناحية العضوية، أي ليسوا مجانيين كما أن

بني آدم لم يعطوا لا قديما ولا حديثا أي بيعة أو انتخاب لفرد أو حزب أو اتجاه لأن يتكلم باسم العقل ونرجو أن لا يقول أحد أن العقل البشري يقول كذا وكذا بل ليقل عقلي يقول كذا وكذا لأن للآخرين عقول فلا تتكلم باسم عقولهم كما أن لمن يخالفك بالرأي عقل، ولا تظن أنه لم يستخدم عقله لأن الحقيقة قد تكون أنه استخدم عقله أكثر منك بعشر مرات، وأنه إنسان كثير القراءة والتفكير والتأمل والنقاش وهو بالتأكيد لا تأتي أفكاره من أنفه أو بطنه بل من عقله، ولكن مشكلة العلمانيين أنهم لا يعرفون الفرق بين العقل والعلم، وبين العلم والجهل، ولا يعرفون ماهي الحقائق الفكرية؟ وعقول العلمانيين حتى ولو كانت تفكر فإنها لم تصل للحقائق الفكرية، بل تعيش على الآراء والظنون وأقوال الفلاسفة، ولهذا ترى عقائدهم مختلفة ومفاهيمهم متناقضة، وتهزها وتغيرها الأحداث السياسية، بل الشخصية، وهذا يثبت أنها اقتناعات قائمة على الجهل، ولهذا تهتز بسهولة!! وإذا قيل قبل عدة قرون كم من جرائم ارتكبت باسم الحرية فأقول: كم من جهل نسب زورا للعقل، ولو تكلم العقل البشري الحكيم لقال عن العلمانيين أنتم أعداء العقل والعلم.

قالت العلمانية للبشر: ابتعدوا عن الدين، واتبعوا العقل "العلماني" فهو سبب لكم الحق من الباطل، والصواب من الخطأ في الجوانب السياسية والاجتماعية والعقائدية والاقتصادية، وتعالوا لنسأل العلمانيين الرأسماليين عما وصلت إليه عقولهم من الهداية والنور والعلم خاصة وأن عقولهم تفكر وتناقش وتكتب منذ أكثر من أربعمئة سنة... ولنسألهم أسئلة عقائدية مثل هل يوجد خالق لهذا الكون؟ وإذا كان موجودا فما هي صفات الخالق؟ ولماذا خلقنا؟ وهل هناك جنة أو نار؟ هذه الأسئلة وغيرها فكر فيها العلمانيون من فلاسفة ومفكرون وكانت إجاباتهم متناقضة وسنكتشف أن العقل العلماني لم يصل إلى إجابات محددة تحدد للناس الحق والصواب في هذه الأمور، وبكلمات أخرى لم يصل لحقائق علمية، بل وصل إلى إجابات متناقضة، أي آراء وظنون، فالعقل العلماني لا زال يعيش في عالم الحيرة والضياع في الجوانب العقائدية، وهذا هو الجهل والعجز والفشل، ولكن الذكاء العلماني يتهرب من هذا المأزق بأن يعطيك آراء لهذا الفيلسوف أو ذاك، وقد ينصحك بأن تتبعد عن هذا المجال لأنه معقد، أو فشل فيه الفلاسفة العلمانيون فلماذا تحاول أن تبحث عن إجابات صحيحة؟ إن في ذلك مضيعة لوقتك وقد يقول بعض العلمانيين ناصحا هذه قضايا ما وراء الطبيعة (ميتافيزيقا)

(أو بلغتنا العربية أمور غيبية) فابتعد عنها، واهتم بالواقع، وما يفيد نفسك وأسرتك، وهذا الهروب مرفوض لأن العقائد والمبادئ سواء كانت صحيحة أو خاطئة تنعكس على سلوك الفرد وواقع المجتمع، ويتضح العجز العلماني إذا انتقلنا للجوانب الاجتماعية وقلنا للعقل العلماني أعطنا الإجابات التي وصلت لها، ولنسأله، ما هي حدود الحرية الشخصية؟ ومن هو المسئول عن الإنفاق على المنزل؟ وما هي الحقوق والواجبات الزوجية؟ وكيف نربي أبناءنا؟..... الخ هذه الأسئلة وغيرها لن نجد لها إجابات محددة في العقل العلماني يثبتها بالأدلة العقلية، بل سنجد إجابات متناقضة لهذا الفيلسوف وذاك المفكر، فالعقل العلماني لا يقول أن الإنفاق على المنزل هو مسؤولية الرجل أو المرأة أو بالمناسبة أو غير ذلك بل يعطيك "الحرية" أن تختار ما تشاء من إجابات فلا يوجد حق ولا باطل ولا علم ولا جهل، ويتهرب من هذه الأسئلة الأساسية بكلمات جميلة مثل هذه حرية شخصية وتفاهم مع زوجتك، وهذا في الحقيقة فشل وعجز وجهل لأن العقل العلماني الذي طلب منا أن نترك الإجابات الدينية على هذه الأسئلة لم يعطنا أي إجابات أي وصل إلى لا شيء ومن البديهيات أن الإنسان حر ويستطيع أن يتصرف كما يشاء، في أموره الاجتماعية بأن يقتنع بأي مبادئ، ويتبع أي سلوكيات والسؤال الموجه للعقل العلماني ما هي المبادئ الصحيحة التي تحقق العدل والحرية الشخصية والعلاقات الاجتماعية الرشيدة؟ حتى يتمسك بها الناس ويحتكمون إليها. فالعقل العلماني يقول الإجابات الدينية خاطئة، وفي نفس الوقت لا يعطيك "إجابات علمانية" لأن إجاباته مستندة إلى ظن، ومن المحتمل ويمكن ولا أدري، وأنت حر واختر ما تشاء، ولو كانت له أخلاق العلماء لقال أنا جاهل وأنا ضائع..... الخ وإذا كان العقل العلماني هرب من إعطاء الإجابات العقائدية والاجتماعية فإنه أيضا لا يملك إجابات سياسية أو اقتصادية، فقوانينه وتشريعاته وحتى مبادئه مجهولة وغير معروفة، ولا يتم استنباطها على مستوى الدولة من خلال العقل والأدلة العقلية بل من خلال التصويت، فهي مجهولة قبل التصويت ولا تظهر إلا بعده فهي إذن ليست حقائق علمية بل هي آراء شعبية تم صناعتها من خلال التصويت لا العقل وكلنا يعرف أن المجالس الشعبية تعطي حولا سياسية لا علمية، كما أن النجاح في الانتخابات لا يخضع للأكثر حكمة وعقلا بل للأكثر مالا وعرقا وإعلاما وأحيانا خداعا وكذبا، وتتدخل في التصويت المصالح والشهوات والأهواء

والعصبيات والتحزبات والأعراق والعقائد المتناقضة، واللجوء للتصويت هو لجوء العاجز عن الوصول بالعقل للحقائق، والتصويت كمبدأ جيد في القضايا الاجتهادية لا في تحديد العلم من الجهل، والحق من الباطل في القضايا الأساسية وأقول بصوت عال لم يحلم الجهل في تاريخه الطويل أن يتساوى مع العلم إلا من خلال الفلسفة العلمانية، فما يقوله الجهل آراء وما يقوله العلم آراء وكلها مقبولة ونطبق منها ما يحصل على الأغلبية في التصويت وباختصار العقل العلماني قال ابتعدوا عن الدين وسنحتكم للعقل، وهو فعلا لم يحتكم للعقل، لا في القضايا العقائدية، ولا الاجتماعية، ولا الاقتصادية والسياسية، فالأولى قضايا غيبية لنبتعد عنها، والثانية حرية شخصية، فافعل ما تشاء، وأما الثالثة والرابعة فالاحتكام فيها للتصويت لا العقل، فهو لم يصل إلى علم أي حقائق علمية، ولم يحتكم أبدا إلى العقل ومع هذا يظن كثير من العلمانيين أنهم أهل العقل والعلم. قال تعالى: "فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين " (50) سورة القصص.

قال د. "الكسيس كاريل" (في كتاب الإنسان ذلك المجهول: إننا قوم تعساء نحط أخلاقيا وعقليًا إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة، الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك.. إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية)(1).

(1) ص 77 أوهام العلمانية حول الرسالة والمنهج د. توفيق الواعي.

القراءة الصحيحة للعلمانية والواقع التركي

كتب الأخ العزيز حامد الحمود مقالا في القبس بتاريخ 11 نوفمبر 2002 بعنوان "العلمانية والقراءة الخاطئة لنتائج الانتخابات التركية" وتم التطرق فيه إلى مواضيع كثيرة تحتاج إلى نقاش وتوضيح وألخص وجهة نظري في النقاط التالية :

1- من المعروف أن في تركيا صراعا بين الإسلام والعلمانية، وبين العلمانيين والمسلمين، كان من مظاهره جعل الأذان باللغة التركية

، ومحاربة الشريعة الإسلامية والحجاب وإعدام رئيس الوزراء التركي المنتخب عدنان مندريس في الستينات لأن له ميولا إسلامية منها أنه أعاد الأذان باللغة العربية، ومن مظاهر هذا الصراع حل الأحزاب ذات التوجهات الإسلامية كحزب الرفاه، وحزب الفضيلة، ومنع المحجبات من التعليم، وإغلاق المدارس الإسلامية، وغير ذلك وبالتالي فحصول حزب العدالة والتنمية على 34% من أصوات الناخبين هو انتصار كبير للإسلاميين، وهزيمة ساحقة للعلمانيين خاصة إذا أخذنا في عين الاعتبار أن قواعد المعركة السياسية والانتخابية وضعها العلمانيون والتي منها أن الدولة العلمانية تقف بمناهجها التعليمية وأجهزتها الإعلامية والعسكرية ضد الإسلام والمسلمين، ولم تتحمل هذه الدولة نجاح نائبة واحدة هي السيدة مروة قاوقجي لأنها محجة فأجبرتها على الاستقالة وليس مسموحا رسميا أن يعلن أي حزب انتماءه للإسلام، ولا توجد ديمقراطية حقيقية في تركيا، والحرية الموجودة هي أن تتكلم في كل شيء إلا انتقاد العلمانية، وحرم رئيس حزب العدالة والتنمية رجب أوردغان من حقوقه السياسية بحكم قضائي لأنه انتقد العلمانية. فليس مسموحا للشعب التركي أن يخرج من النظام العلماني، وهذا يخالف بديهيات الحرية والعدل والعقل والديمقراطية. وتم فرض العلمانية عليه بالقوة قبل ثمانين سنة من قبل مصطفى كمال وهذا ليس تغييرا لنظام سياسي أو دستور بل هو تغيير للمبادئ والعقائد التي يؤمن بها الشعب، والصراع العقائدي بين الإسلام والعلمانية صراع جذري، والدولة لا تتحمل مرجعيتين إسلامية وعلمانية، والمسلم لا يمكن أن يكون علمانياً؛ فلا يوجد في الإيمان حل وسط، والعلمانيون هم الذين أشعلوا هذا الصراع في تركيا ولا يمكن أن تتفرغ تركيا للتنمية والبناء إلا بحسم هذا الصراع، ولا أعلم الغيب، ولكن أظن أن العد التنازلي لنهاية العلمانية التركية قد بدأ.

2- استشهاد الأخ حامد بما قاله الأستاذ رجب أوردغان "إن العلمانية هي الحامي الأمثل لجميع المعتقدات والأديان" غير مقبول لأنه لو قال غير ذلك لحل الحزب وسجن مرة أخرى، والطريف أنه لا توجد في تركيا أديان فالشعب التركي من الشعوب التي تفتخر بأن عدد المسلمين 99% أي أكثر من نسبة المسلمين عند العرب، ولازلنا نذكر كيف أجبر العسكريون أربكان كرئيس الوزراء على أمور كثيرة ليس مقتنعا بها ومع هذا أجبروه على الاستقالة وحتى تورغت أوزال رحمه الله واجه القيود العسكرية كرئيس وزراء، وكرئيس دولة ومع

هذا حقق نجاحات إسلامية، ووطنية كثيرة منها تطوير الاقتصاد التركي وتشجيع التعليم الإسلامي والمدارس الإسلامية وإعادة الاعتبار لرئيس الوزراء عدنان مندريس الذي اعدمه العلمانيون. وقد وجه ضربة قوية للعلمانيين بعد موته عندما طالب بوصيته بأن تكون جنازته إسلامية، وأن يدفن بقرب عدنان مندريس. فهو رحمه الله حاربهم حياً وميتاً والصراع الفكري والسياسي بين العلمانية والإسلام هو صراع أبدي وأزلي واستخدم العلمانيون الأتراك كل ما لديهم من وسائل لمحاربة الإسلام والمسلمين كما ذكرت أعلاه، ويستخدم المسلمون ما لديهم من سياسة وذكاء وقواعد شعبية وظروف محلية وإقليمية لتحقيق الإنجازات الإسلامية والوطنية، وأتمنى أن يحدث استفتاء للشعب التركي حول الاختيار بين الإسلام والعلمانية، وهذا حل عادل يجب أن يرضى به الجميع وأضيف إلى ذلك أنه إذا كان الإسلاميون في تركيا أثبتوا للشعب وبالتجربة أنهم أهل أمانة وحرص على أموال الشعب وأنهم أمل الشعب في إنقاذ الاقتصاد والدولة فهذا نجاح كبير خاصة وأنه لا يوجد حزب علماني واحد مع تنوع الأحزاب العلمانية قد نال الثقة المالية، فالتجربة أثبتت انتشار الفساد المالي في هذه الأحزاب.

3- عداؤنا كمسلمين للعلمانية ليس راجعا لعداء شخصي أو سياسي أو سوء فهم لمعانيها أو غير ذلك بل إلى أدلة من القرآن والسنة، وإليكم بعضها قال تعالى (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون(18) إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين(19) سورة الجاثية. وقال تعالى: (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير(120) سورة البقرة وقال شيخ الإسلام ابن تيميه "ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوغ اتباع غير دين الإسلام، أو اتباع شريعة غير شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر" (1) وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله " كما أجمعوا (علماء الإسلام) على ان من زعم أنه يجوز لأحد من الناس الخروج على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم أو تحكيم غيرها فهو كافر ضال وبما ذكرناه من الأدلة القرآنية وإجماع أهل العلم يعلم السائل وغيره أن الذين يدعون إلى الاشتراكية، أو إلى الشيوعية أو غيرها من المذاهب الهدامة المناقضة لحكم الإسلام كفار ضلال أكفر من اليهود والنصارى" (2) وقال الدكتور أحمد كمال أبوالمجد "أما قضية فصل الدين عن

الدولة بمعنى إقصاء الدين عن أن يكون له دور في تنظيم أمور المجتمع فإنها المكون الرئيس من مكونات العلمانية الذي لا يسع مسلماً قبوله" (3) فالعلمانية هي الكفر والشرك وإذا كانت العلمانية الأوروبية كما ذكر الأخ حامد تحترم المسلمين وتعلمهم الإسلام من ميزانية الدولة العلمانية فهذا شيء يشكروا عليه ولكن ذلك لا ينفي وجود الاختلاف والصراع الجذري بين الإسلام والعلمانية، ولا شك أن العلمانية ستقبل الإسلام إذا تم إلغاؤه كدولة وكشريعة وكجهاد واقتصر فقط على الأخلاق والعبادات، وهذا ما لم ولن يقبله الإسلام والمسلمون حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

4- ذكر الأخ حامد أن العلمانية تضيق المجال على العنصرية والمذهبية والقومية والطائفية والعشائرية وأقول بل العكس هو الصحيح لأن كل من ينتمي لهذه المبادئ هو إنسان طبق ما دعت إليه العلمانية، وهو فصل الدين عن الدولة فهؤلاء أوصلتهم عقولهم العلمانية إلى أن التعصب القومي أو الوطني أو الطبقي أو القبلي.. الخ هو مبدأ صحيح فالنازية فكر علماني استند إلى عقول الفلاسفة العلمانيين وليس إلى علماء المسيحية، أو الإسلام، وكذلك الفكر الشيوعي والرأسمالي والاستعماري والوجودي.. الخ ولو كان الاحتكام للإسلام لما وجدت كل هذه المبادئ العلمانية، وبعد رفض الانتماء للإسلام كدولة وسياسة في تركيا العلمانية ظهرت العصبية العرقية التركية والكردية، وظهرت الأحزاب اليمينية واليسارية المتطرفة، وظهر التعصب لمصطفى كمال وجعلها أيضاً منبوذة داخل الوسط الإسلامي العربي والعالمي مما أفقدها التأييد السياسي في صراعها مع اليونان حول قبرص مما دفعها لاحقاً لاستضافة مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية بعد أن وجدت نفسها وحيدة في عالم السياسة وبالإسلام كانت تركيا دولة عظمى واليوم هي دولة عادية تخضع لشروط البنك الدولي وتطلب المساعدة من أمريكا، وتعبت وهي تطلب أن تقبل عضواً في الاتحاد الأوروبي. وما أقوله لا يتعارض مع حرص العلمانية الأمريكية على محاربة التعصب الديني والسياسي، ولكن العلمانية الأمريكية ليست الممثل الشرعي والوحيد للعلمانية، وأتمنى ألا نتفائل كثيراً بالعلمانية الأمريكية؛ فالسيطرة في أمريكا للبيض وللبروتستانتية، وإذا وجدت استثناءات عرقية وطائفية فهذا لا يتعارض مع المصالح العليا للطوائف والأعراق الكبيرة، والذكاء الأمريكي يسمح بذلك لأن البدائل الأخرى أشد مرارة وليس صدفة أن يكون الأمريكيون

الأفارقة أكثر الأمريكيين فقراً وبطالة وجهلاً، وأنا هنا لا أتحدث عن القوانين الجميلة بل عن الواقع والحقائق. وعموماً في أغلب بلاد العالم عقائد ومبادئ دينية وطائفية وعلمانية وفي النهاية يجب أن يتم اختيار أحدها على مستوى الدولة فإذا اخترنا الإسلام اخترنا الحق والصواب وإذا اخترنا العلمانية فقد اخترنا الباطل والخطأ، وأضيف لذلك أن العلمانية ليست الاختيار الصحيح حتى ولو كان موقفها من الأديان السماوية كحل وسط لأن الحق ليس بالضرورة هو الحل الوسط. فإذا كان هذا الجانب في العلمانية والذي يبدو جميلاً هو قبيح، فكيف إذا سلطنا الأضواء على سلبات العلمانية الكثيرة؟! وراجعوا أن شتمت كتابي "عجز العقل العلماني" لأن الموضوع طويل ومتشعب.

5- القول بأن العلمانية الرأسمالية تنصف الأقليات صحيح لدرجة كبيرة، والسؤال المهم هو هل النظام الإسلامي يضطهد الأقليات الدينية والعرقية؟ الإجابة لا، لأن النظام الإسلامي يستمد مبادئه من القرآن والسنة، والله لا يأمر إلا بالعدل والحق، ونحن نتحدث عن الإسلام لا عن اجتهادات متطرفة، أو تطبيقات خاطئة، ومعارضتنا للعلمانية الرأسمالية ليس معناه أن كل ما فيها مرفوض، وخطأ، بل فيها جوانب كثيرة صحيحة كالديمقراطية التي نستطيع أن نقول بينها وبين الشورى تشابه كبير جداً، كما أننا نتفق إلى درجة كبيرة مع حرية الرأي الغربية. وقد أعطى المسلمون للأقليات الدينية الحرية في ممارسة عبادتهم، ولم يقتصر ذلك على المسيحيين واليهود بل أيضاً للأشوريين والهندوس، وكذلك هناك حجم كبير من الحرية والمساواة مع المسلمين في كثير جداً من الحقوق والواجبات، ولكنها ليست مساواة مطلقة. كما يطالبنا الإسلام بالنظر إلى الفرد ومؤهلاته وإنتاجيته في التوظيف والترقيات، وأمام المحاكم، ولا نفرق بين المسلم وغير المسلم، وهذا ما يفعله كل مسلم واع قال تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) (25) سورة الحديد وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون) (8) سورة المائدة.

(1) فتوى شيخ الإسلام في حكم من بدل شرائع الإسلام.

(2) ص 60 تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية د. صلاح الصاوي.

(3) ص 530 كتاب القومية العربية والإسلام - مركز دراسات الوحدة العربية.

ولو قلت لي اختصر الإسلام في كلمات قليلة لقلت هو التوحيد والعدل والرحمة بالإنسان والحيوان ويستحيل عقلاً وشرعاً أن يأمرنا الله سبحانه وتعالى بمبادئ وشرعية ضد العدل والحرية النظيفة والأخلاق الرفيعة، ويدعوننا الإسلام للتمييز في المجالات الاقتصادية، والتكنولوجية، والإدارية، والى إتقان العلم والعمل، وما يحدث في واقع المسلمين من كسل و خمول وتخلف علمي وتكنولوجي هو نتيجة عدم التزام المسلمين بالإسلام، وليس العكس. وتبقى نقطة هامة في قضية العدل وهو من المستحيل تحديد العدل قبل أن نحدد ما هي المبادئ الصحيحة أولاً هل هي الإسلام، أو العلمانية؟ والعدل هو الالتزام بهذه المبادئ حتى ولو كانت عقولنا تظن أن بعض هذه المبادئ تخالف العدل والحق فالعقل البشري المجرد يرى أحياناً كثيرة الحق باطلاً، والباطل حقاً، فلا نور من الله سبحانه وتعالى لن نعرف الحق من الباطل قال تعالى:(ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) سورة النور.

6- سيتضح لنا فشل العلمانية وشرها إذا فصلناها عن أمور ليست منها كالديمقراطية والعلمية والعقلانية والحدثة والتطور التكنولوجي والإداري والاقتصادي والرأسمالي والأهداف والشعارات الجميلة فالعلمانية هي فصل الدين عن الدولة ومعناها أن الأديان السماوية منبع الظلم والخرافات والتعصب والسطحية والجهل.. الخ وتطالبنا العلمانية باتباع عقول الفلاسفة المتناقضين الضائعين ليحددوا لنا معاني العدل والحرية والمساواة والإنسانية.. الخ والعلمانية لم توصلنا إلى حقائق وعلم بل إلى آراء متناقضة. وكل الأدلة التي قدمها الفلاسفة والمفكرون لإثبات صواب العلمانية أو أحد مدارسها كالرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والوجودية.. الخ هي أدلة مرفوضة عقلاً. والعلمانية الرأسمالية بالذات لا تستند إلى أي أدلة واضحة فهي قائمة على أن الدين المسيحي حدث له تحريف، وأنه في جوانب منه يعارض الحقائق المادية، والعقل وأن رجال الدين المسيحية استغلوا الدين للتحكم بالشعوب، وهذا شيء صحيح، ولكن هذا ليس دليلاً على أن السير في الاتجاه المعاكس العلماني هو

الصحيح، وحسم الخلاف بصورة علمية مع العلمانية هو بالتركيز على الأدلة التي تستند إليها، وليس على ذكر إيجابياتها وسلبياتها، فبالإمكان كما شاهدنا أن نقول عن الشيوعية أنها تنصف العمال والمستضعفين والفقراء وتقضي على الاحتكار والإقطاع، وتساوي بين البشر، وتحارب التعصب العرقي بأنواعه المختلفة.. الخ وسنعرف فشل الشيوعية عندما نسلط الأضواء على الأدلة العقلية التي تستند لها في إثبات نظريات لا وجود للخالق، والكون خلق صدفة، والإنسان تطور من قرد، فهذا الكلام ينفية العقل والعلم، وهو تخريف للفلاسفة الجهلاء. وتستند العلمانية الرأسمالية إلى أسس مثل الواقعية والتصويت، والنسبية والحلول الوسط، والعملية.. الخ وهذه ليست أدلة عقلية وليست هي الأسلوب للوصول للحقائق الفكرية العقائدية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، وسبب نجاحها أن فلاسفتها أكثر عقلانية وواقعية إذا تم مقارنتهم بالفلاسفة الشيوعيون كما أن وقوف أمريكا وأوربا خلفها بقوتهم الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية أعطاها دعما أكبر خاصة وأن الكثيرين اعتقدوا أن هذه القوة هي نتيجة المبادئ العلمانية! وهذا ليس بصحيح!.

مبادئنا أو مبادئكم (1)

يقول العلمانيون بأن مبادئهم أرقى من مبادئنا الإسلامية، فهم مع الديمقراطية، والسيادة للشعب، والتسامح والحرية، والمساواة، والانفتاح على الآخرين، وتشجيع الإبداع العلمي والأدبي،..... الخ في حين أن الإسلام ليس فيه ديمقراطية، وفيه تعصب وتزمت وانغلاق وجمود فكري وعقلي..... الخ. طبعاً لو كان الأمر كذلك سأكون شخصياً أول العلمانيين ولكن والحمد لله فإن الأمر ليس كذلك أبداً وإليكم الأدلة:-

(1) " الأهداف العامة " : ادعاء العلمانيين انهم أهل الحرية والعدل والمساواة والديمقراطية هو ادعاء باطل لأن هذه أهداف عامة تسعى لها كل العقائد أو أغلبها على الأقل، ويسعى لها كل المخلصين أو أغلبهم، فلا أحد يتبنى عقائد أو مبادئ لأنها تحقق الاستبداد والظلم والطبقية، فاحتكار الأهداف العامة وجعلها كأنها مبادئ وعقائد هي كارثة علمية وقد نجح العلمانيون من حيث يدرون أو لا يدرون في خداع الناس وخداع أنفسهم بالربط بين الأهداف العامة والعلمانية، فالحقيقة أنه ليس هناك خلاف حول الأهداف العامة، بل الاختلاف

بين المخلصين في ما هي المبادئ والعقائد (الإسلام، الرأسمالية، الاشتراكية.... الخ) التي تحقق هذه الأهداف؟ وبكلمات أخرى للحرية معان كثيرة ومتناقضة، وكذلك للعدل والتسامح، والمساواة، والعقلانية، والرحمة، الخ ولن نستطيع تحديد الحرية الصحيحة إن لم نعرف أولا المبادئ الصحيحة، ولن نصل للمبادئ الصحيحة إلا من خلال الأدلة العقلية الصحيحة، وما ينطبق على الحرية ينطبق على العدل والمساواة والتسامح وغير ذلك، وبكلمات أخرى لن تكون عادلا إذا كان كل ما لديك رغبة صادقة في تحقيق العدل، ولن تدافع عن الحرية إن لم تعرف أولا حدودها وهذا لا يتعارض مع معرفتنا بجوانب من العدل، والحرية لا يختلف البشر عليها، لأن المشكلة ليست فيما هو معروف ومتفق عليه بين البشر على أنه عدل أو حرية، بل فيما هو مختلف فيه، قيل كم من جرائم ارتكبت باسم الحرية؟

(2) "عقلك يخدعك": قد يكون غريبا أن أحذرك من عقلك، لأن العقل المجرد قد يرى القبيح جميلا، والجميل قبيحا، فهو كالعين التي ترى السراب فتظنه ماء، فلا تنظر إلى السطح الخارجي للعقائد والمبادئ، فكثير منها جميل وجذاب وخادع، فهذه تدافع عن العمال والفقراء والمستضعفين (كالشيوعية)، وهذه مبادئ تدافع عن الحرية والقطاع الخاص (كالرأسمالية)، وهذه مبادئ تدافع عن الروح، والنفس، وهكذا والعكس صحيح، فهذه تتهم بالاستبداد، وأخرى بالطبقية، وثالثة، ورابعة بالمادية.... الخ وعقول البشر المخلصين توزعت بين هذه المبادئ وغيرها، فما يراه هؤلاء جميلا وحقا يراه آخرون قبيحا وباطلا، وضياح العقل البشري منتشر إلى درجة كبيرة لأسباب منها أن المفاضلة بين العقائد والمبادئ المختلفة محاولة فيها كثير من الصعوبة لاختلاف المعايير التي يستخدمها البشر، ولقدرة العقل البشري على مدح وذم كثير من العقائد والأحكام والأخلاق، فحتى الخمر تجد من يمدحها ويجعلها علاجا للهموم والمشاكل ونجد أيضا من يذم الصلاة ويعتبرها ضياعا للوقت، أو علامة على التخلف والسطحية، وبالتالي فالعقول المخلصة لن تحسم اختلافاتها إذا عملت مقارنات بين مبادئنا ومبادئكم، أي أن المقارنة مثلا بين الإسلام والعلمانية في العقائد والشرائع لن تكون حاسمة، وسيكون مجال الجدل واسعا ومستمرًا أما طريق الحسم فهو أن نسأل ماهية الأدلة العقلية على صواب هذه المبادئ أو تلك؟

قال ابن تيمية: "إن مئات الآلاف من النفي لا يقوم مقام إثبات واحد" (1).

(3) "الأدلة العقلية": حسم الحق من الباطل في العلوم المادية يتم من خلال طريق التجربة والمشاهدة والاستنتاج، لا من خلال جمال هذا الرأي، أو قبح الآخر، ولهذا فالحقائق المادية واضحة، ولا اختلاف حولها. وإذا بحثنا عن الحقائق في المجال الفكري (الإسلام، المسيحية، العلمانية، البوذية، الشيوعية، ... الخ) فهو ممكن وسهل إذا سلكنا الطريق الصحيح الذي يوصل إليها والذي يركز على إرجاع

(1) ص 216 رجال الفكر والدعوة في الإسلام أبو الحسن الندوي

هذه الحقائق والمبادئ إلى منابعها وأصولها، فالشيوعية معتمدة على أسس من أهمها عدم وجود الله سبحانه وتعالى، فإذا ناقشنا وتعمقنا بالأدلة التي يقدمها المؤمنون بوجود الله من مسلمين ومسيحيين ويهود أو غيرهم وناقشنا كذلك الأدلة التي تنفي وجود الله ويقدمها الملحدون من شيوعيين وغيرهم نستطيع أن نصل إلى الحق والصواب، فإذا ثبت وجود الله سبحانه وتعالى تسقط الشيوعية كفكر، وإذا أثبتنا صدق الرسول محمد يكون الإسلام هو الدين الصحيح، ويكون الفكر الرأسمالي العلماني فكرا خاطئا لأنه إيمان ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر، وهذا شئ خاطئ بناء على المعايير الإسلامية، والغريب فعلا أن الفكر الرأسمالي العلماني هو فكر ليس قائما على أدلة عقلية وهذا ليس بناء على ما يقوله أعداؤه بل أيضا هذا ما يقوله أهله، ففكرهم قائم على الآراء لا الحقائق، وعلى الظنون لا اليقين، فهو نظريات وآراء متناقضة لفلاسفة ومبادئهم وشرائعهم ليست مبنية على أدلة عقلية، بل على التصويت الشعبي فكلنا يعرف أن التصويت الشعبي سواء كان من خلال استفتاء، أو مجلس نيابي، ليس أساسا عقليا وعلميا، لأنه تتداخل فيه المصالح والأهواء والعصبية والفهم الخاطئ والتحالفات وشراء الذمم المزایدات والتهديد ... الخ ومع هذا يعتبر التصويت الشعبي في الفكر الرأسمالي الغربي هو الميزان الرئيس لتحديد المبادئ والقوانين والقرارات، فهو فعلا كارثة علمية، ولكنه يعتبر خشبة أفضل من غيرها إذا تم مقارنتها بالغرق في بحر الأقلية والانفرادية، والفردية سواء كانت هذه الأقلية حاكما أو حزبا أو طبقة أو عرقا فالتصويت حل سياسي وليس علميا وهذه الخشبة ستكون

متواضعة جدا إذا تم مقارنتها بالسفينة الإسلامية العملاقة التي تشق طريقها في الدنيا والآخرة على هدي من خالق الكون العظيم العليم الحكيم القوي الجبار قال تعالى: "أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب". (سورة الرعد -13-).

مبادئنا أو مبادئكم (2)

عرف أحد العلمانيين العلمانية "بأنها حيادية الدولة أمام الأديان، وهي تحقق المساواة الكاملة بين المواطنين، ولا تفرق بينهم بسبب الدين، وتقول للمسلم والمسيحي واليهودي وغيرهم مارسوا شعائركم الدينية" وهذا التعريف هو تعريف جزئي وليس كاملا للعلمانية، ولكنه فيه كثير من معاني العلمانية، وتعليقي عليه هو كالآتي:

1- ليس صحيحا إطلاقاً أن المسيحية الحقيقية والإسلام مع ظلم الإقطاع واضطهاد البشر أو مع الاستبداد أو الحروب أو التعصب الديني والإرهاب.. الخ. فالعلمانية وأبنائها الرأسمالية والشيعوية والاشتراكية والنازية.. الخ وهذه كلها عقائد علمانية قد أشعلوا مئات الحروب أو أكثر خلال الأربع قرون الماضية، منها حربان عالميتان في القرن العشرين قتل فيها أكثر من خمسين مليون من البشر أغلبهم من المدنيين، فالعلمانيون تناحروا فيما بينهم، وإذا أضفنا إلى ذلك أن ليس كل الحروب التي حدثت باسم الأديان السماوية هي حروب دينية فعلاً، وأن الأديان السماوية لا تدعو إلى قتل الناس أو إعلان الحرب عليهم بناء على عقائدهم، وأن الحروب تحدث أيضاً بين المسلمين أنفسهم والمسيحيين أنفسهم وبين أبناء الأمة الواحدة والشعب الواحد والقبيلة الواحدة حدث هذا في كثير من الأمم والشعوب بما فيها أمريكا في الحرب الأهلية، وبالتالي فإن من الجهل أن تتهم العلمانية الأديان السماوية أنها منبع التعصب والحرب، فهذا ليس له علاقة أبداً بالعلم والموضوعية.

2- من قال أن العلمانية هي الحل الوسط أو الحيادي بين العقائد السماوية، كالإسلام والمسيحية؟ فهناك تشابه كبير بين الأديان السماوية وهي قائمة على معرفة الله سبحانه وتعالى وطاقته، والعبادة والعفاف وتحريم الزنا.. الخ. والعلمانية تدعو لعكس ذلك، أو على الأقل تسمع وتدافع عن كثير من الأمور المخالفة ابتداءً من التمرد على الشرائع السماوية، وانتهاءً بالدفاع عن كل الانحرافات

الشخصية والقانونية باسم الحرية. فالعلمانية لا تبني على ما تم الاتفاق عليه بين المسلمين والمسيحيين بل تعارضه، ومن المعروف أن المسيحية ليست دينا ودولة، وبالتالي ليس هناك صراعا أو تنافسا بينها وبين الإسلام على مستوى الدولة قال الدكتور يوسف القرضاوي: "فالمسيحي يمكن أن يقبل العلمانية، حاكماً أو محكوماً، ويبقى مع هذا مسيحياً، غير مخدوش ولا مقهور في عقيدته ولا شريعته". وقال "وإذا نظرنا إلى العلمانية مع الإسلام وجدنا الأمر يختلف تمام الاختلاف، وذلك لأن الإسلام جاء نظاماً كاملاً للحياة" (1) فالعقيدة المسيحية تقبل (ما لقيصر لقيصر وما لله لله). وأنا كمسلم أفضل أن أعيش بدولة مسيحية ملتزمة بدينها على أن أعيش في دولة علمانية مشبعة بالكفر والزندقة في كثير من جوانبها. ومن قال أن الدولة الإسلامية ستمنع المسيحي واليهودي واليهودي.. الخ من ممارسة شعائريهم الدينية، وما تتكلم عنه ليس شعارات بل هو واقع موجود في تاريخ وواقع دولنا الإسلامية، وليس صحيحاً أيضاً أن المساواة محدودة بين المسلمين والمسيحيين في الدولة الإسلامية، فهي كبيرة جداً ولكنها ليست مساواة مطلقة، بل إن المسيحيين لا يريدون أن تكون مساواة مطلقة في بعض المجالات كقوانين الزواج، والخدمة العسكرية والزكاة.. الخ ولو نظرنا لواقع الأمة العربية لوجدنا أن 95% منها مسلمون، وهذه أكبر وحدة فكرية عرفت في العرب، وغالبية شعوبنا العربية لا يوجد فيها حتى 1% من غير المسلمين. فالعلمانية تسير مخالفة للحقائق الفكرية، ومخالفة للحقائق الواقعية، ومخالفة لرأي الأم، والشعب والديمقراطية، قال د. يوسف القرضاوي: "لا يتصور للعلمانية أن تنجح في بلد إسلامي، لأنها مناقضة لطبيعة الإسلام، الذي تدين به الشعوب المسلمة، ومناقضة لمفاهيمه وسلوكه وتاريخه... ولا يوجد أي مبرر لقيامها، كما وجد ذلك في الغرب النصراني" (2)

(1) ص 73 الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه د. يوسف القرضاوي.

(2) ص 60 الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه د. يوسف القرضاوي.

فهي تصنع فتنة غير موجودة، وهذا هو فعلاً ما صنعه حيث جاءت بعقائد أوربية وأمريكية، وتحاول تطبيقها في واقع يرفضها، ولهذا تنتقل من فشل إلى آخر، ومن هزيمة إلى كارثة.

3- من قال أن المساواة المطلقة أمام الدولة هي الشيء الصحيح علمياً؟ ولماذا لا نطالب المساواة بين البشر في رواتبهم، وما يملكون فهذه أهم؟ ولماذا لا نطالب المساواة بين البشر في اختيار أين يعيشون على هذه الأرض؟ فالأرض ملك لله سبحانه وتعالى. وسعى الفكر الشيوعي لتحقيق المساواة المطلقة في دخل الناس، ولكننا نقول بأن المساواة المطلقة خطأ، والمؤمن بالله وبكتبه لا يجب أن يتساوى مع الكافر. وأمريكا لا تسمح بدخول الهنود والعرب والصينيين وغيرهم لأراضيها إلا بإذن، فلا تعامل البشر بالتساوي مع الأمريكيان، كما أن الرئيس الأمريكي بيل كلينتون يحاكم عند محكمة سياسية في قضية لونييسكي، وهذه مهزلة في المساواة والعدل، وعموماً فالدول لا تساوي بين الملتزم بقوانينها والمتمرّد، والناس لا تساوي بين الإنسان المحترم والتافه، وبالتالي فلا يجوز أن نساوي بين من يطيع الله سبحانه وتعالى وبين من يكفر به، لأن فضل الله علينا أكبر من فضل دولنا والناس. فالمفاهيم الصحيحة للمساواة وتفاصيلها هي تلك التي حددها الله سبحانه وتعالى، ولكن العلمانية ترفضها وتعتبرها ظلماً. ونقول نعم، الإسلام لا يساوي بين المسلم والكافر، ولم نفعّل ذلك تعصّباً أو جهلاً، بل لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بذلك، فإذا اثبتوا لنا أن الله لم يأمر فسنطيعكم، أما إذا قلتم لا يهمكم ما يأمر به الله، فنقول هو يهمننا فهو العليم الحكيم، والعدل، والرحيم قال تعالى: (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) سورة الأنعام: 33 .

4- من الخطأ أن يظن البعض أن هناك تياران إسلامي وعلماني في شعوبنا، أو أمتنا، فكثير ممن يعتبرهم البعض علمانيين ليسوا كذلك، بل هم مسلمون متأثرون جزئياً ببعض الأفكار العلمانية نتيجة دراستهم في أمريكا وأوروبا، أو نتيجة الغزو الثقافي والإعلامي الغربي الذي أثار شبهات كثيرة، وشوّه كثير من الحقائق الفكرية والواقعية والتاريخية. وعموماً فليس للعلمانيين قوة حقيقية، فهم يعيشون على إثارة الشبهات، وتوجيه الاتهامات، والاستفادة من نقاط ضعف الشعوب والأمة، مثل تطرف بعض الجماعات الإسلامية، أو ضعف التمثيل السياسي للشعب أو التحالف مع المفسدين.

ما هي الليبرالية ؟

كتب الأخ خليل على حيدر بتاريخ 22 يوليو 2002 بجريدة الوطن مقالا بعنوان "لا إسلامية ولا ليبرالية" وذكر فيه أن الأنظمة التي

ليست إسلامية ليست بالضرورة ليبرالية، وطالب الكتاب الإسلاميين "باستخدام مصطلح الليبرالية والنظام الليبرالي والجماعات الليبرالية بشكل دقيق، فالذي يراه الآن فوضى فكرية لا آخر لها" وقال الأخ خليل: " الليبرالية تقوم على الديمقراطية الدستورية، والحرية السياسية والاقتصادية، والمساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات، وحرية الفكر، والعقيدة الدينية، واعتبار الشعب مصدر التشريع، وتتضمن الليبرالية احترام حقوق سائر الجماعات السياسية، والأقليات القومية والمذهبية، وتؤمن بتداول السلطة، وبحق جميع التيارات في المشاركة الكاملة في الحياة السياسية ما دامت وفية للدستور ولمبدأ "حق الأغلبية في إدارة الحكم مع حق الأقلية في المعارضة" وذكر الأخ خليل "أن بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولندا وكندا وأمريكا أنظمة ليبرالية راسخة" وأعلق على ما قال بما يلي :-

(1) بعض ما ذكره الأخ خليل تؤيده ولا اعتراض عليه كخطوط عريضة، مثل حكم الأغلبية وحق الأقلية في المعارضة، والديمقراطية والحرية السياسية والاقتصادية والتساوي في الحقوق والواجبات بين الجنسين، وحقوق الأقليات، فهذه أهداف عامة لا تختلف حولها كمسلمين إلا في نوعية الضوابط، ولنقل أننا متفوقون حولها 90%، وليس هذا مجال تفصيل الاختلاف. ونعلم أن هذه مطبقة في الدول الغربية، وغير مطبقة في معظم بلادنا الإسلامية، ولكن الخطأ ليس في مبادئنا بل في ضعف التزامنا بهذه المبادئ.

(2) الدول التي اعتبرها الأخ خليل ليبرالية كأمریکا وبريطانيا وهولندا هي دول علمانية رأسمالية، ولو طلبنا منه أن يذكر أمثلة عن الدول العلمانية لقال أمریکا وبريطانيا وهولندا، والأهم من ذلك أن التعريف الذي ذكره لليبرالية هو فعلا التعريف الجديد للعلمانية بعد أن تم رفضها عندنا كمسلمين لأنها تفصل الدين عن الدولة، أو بكلمات صريحة هي كفر وزندقة، فالليبرالية هي الاسم السري للعلمانية الرأسمالية، وليس عندنا كمسلمين جهل أو توهم في ذلك، فالفوضى الفكرية هي أن نعتبرهما شيئين مختلفين أو متناقضين، وحتى نضع النقاط على الحروف نقول الحرية والمساواة والعدل كلمات عامة لا اختلاف على أهميتها، ولكن الاختلاف على معناها فهناك معان لها محددة في العلمانية الرأسمالية، ومعان أخرى كانت موجودة في العلمانية الشيوعية وهناك معان إسلامية لها، أي أن هناك حرية

رأسمالية، وحرية شيوعية، وحرية إسلامية، النوعان الأولان وغيرهما كثير كالحرية الاشتراكية، والوجودية، والانتقائية، والنازية، وضعها الفلاسفة، والحرية الإسلامية وضعها الله سبحانه وتعالى أي أن حقيقة الخلاف هل بنى حياتنا على عقيدة وشريعة وأخلاق أمرنا الله سبحانه وتعالى بها أم على آراء ومفاهيم الفلاسفة عن الحرية والعدل والمساواة؟ (راجع إن شئت كتابي "عجز العقل العلماني" لأنه فيه تفصيل لهذا الموضوع).

(3) كثير من المبادئ والشعارات والأهداف تبدو جميلة سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية أو إسلامية أو مسيحية فالشيوعية كانت تطالب بإنصاف العمال والفلاحين والفقراء، وتطالب بالعدل، وتحرير الشعوب، و"العلمية" وصفق لها الكثيرون، وكذلك الأمر مع الليبرالية تبدو منظرا جميلا، ولكنها في حقيقتها الجهل والضياع والسراب لأن الاحتكام ليس للشعارات والأهداف، بل ما هي الأدلة العلمية التي تثبت صحة الإسلام أو الشيوعية أو الليبرالية أو غير ذلك؟ أي ما الذي يثبت أن العقائد والمفاهيم للحرية والعدل والحقوق والواجبات الخ لهذا المبدأ أو ذاك هي الصحيحة؟

نحن نريد أن نبني حياتنا على العلم والنور والحكمة، أي الحق والصواب، وأدلتنا كمسلمين باختصار شديد هو أنه ثبت بالأدلة العقلية العلمية وجود الله سبحانه وتعالى، وصدق محمد صلى الله عليه وسلم، فما هي الأدلة العقلية العلمية على صواب الليبرالية أو العلمانية الرأسمالية، الطريف والغريب أنه لا يوجد دليل واحد على صوابها بعكس الشيوعية التي حاولت أن تستند إلى العلم والعقل من خلال نظرية التطور لدارون أو الحتمية التاريخية وهي ليست بالطبع أدلة علمية بل تخريف الفلاسفة. فالليبرالية قائمة على مبدأ لنبتعد عن الدين المسيحي لأنه في اعتقادهم خطأ، وهذا ليس دليلا على أن الليبرالية حق وصواب. ولا نختلف معهم في أنه حدث للمسيحية بعض التحريف، وهناك اجتهادات خاطئة للكنيسة، وقد يعتبر البعض أن النجاح المادي والتكنولوجي وحتى السياسي الذي حققته أمريكا وبريطانيا وهولندا دليل على صواب الليبرالية، ونقول هذا ظن وخطأ لأوراق تكنولوجية في قضايا فكرية، لأنه يمكن أن نقول بناء على ذلك أن الإسلام ساهم في بناء عدة دول عظمت كانت قوية، وغنية وكذلك الشيوعية قامت عليها الصين

وروسيا، وهم دول عظمى وحتى لا يتعب الليبراليون أنفسهم نقول إن الليبرالية الرأسمالية قائمة على آراء الفلاسفة الذين يعترفون بأن ما لديهم إنما هو آراء ونظريات، وليست حقائق أي علم، وقائمة على الأهداف والشعارات، وقائمة على الجدل والتناقض، وقائمة على الحلول الوسط للقضايا المختلف حولها، أي عجز العقل العلماني في الوصول للحقائق والعلم والنور والحكمة جعلهم يلجئون للتصويت والحلول الوسط، والتجاهل والتأجيل، والظن والآراء، فهم لم يعد يهمهم أين الحق في القضايا العقائدية والتشريعية؟ بل أصبحت الأمور عندهم نسبية، وأصبحت حياتهم تدور حول المال والمصالح والشهوات فأغلبهم يؤمنون بوجود الله سبحانه وتعالى ولكنهم لا يعبدونه ولا يطيعونه "حل وسط" وهم ليسوا مع الدين، ولا ضده، ولا مع آراء هذا الفيلسوف، ولا ضده، وهم ليسوا ضد العقائد الباطلة لأنهم يؤمنون "بحرية العقيدة" وليسوا ضد الفساد الأخلاقي لأنهم يؤمنون "بالحرية الشخصية" أي حقيقتهم أنهم بلا مبادئ محددة يدافعون عنها إلا في مجالات محدودة، أي أن الغالبية الساحقة من حياتهم لا تخضع إلى المبادئ لأنها عندهم آراء وحرية شخصية، وقضايا فلسفية، وما وراء الطبيعة، وكلها في ظنهم لا تستحق أن يكون لهم فيها مبادئ وموقف، وهذا قمة الجهل والباطل والضياء، والعجز وهذا خذلان للعلم والعقل، ومع هذا يظنون أنهم أهل العقل والحكمة قال تعالى: "ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا" (72) سورة الإسراء.

(4) أتمنى فعلا أن نحتكم إلى الشعب " باعتباره في العلمانية الرأسمالية مصدر التشريع" لأن هذه حرية تؤمن بها، وأتمنى أن يقوم العلمانيون باستفتاء للشعوب العربية والمسلمة على سؤال واحد هو: أتريدون الإسلام أم العلمانية والليبرالية؟ ونعلم أن النتيجة محسومة بنسبة أكبر من 90% للإسلام ومع هذا يصر الليبراليون، على اقتراح أنظمة ليبرالية للشعوب لا تؤمن بها وهذا أحد الأسباب الرئيسة لاستبداد الأنظمة والأحزاب العلمانية والمتأثرة بالعلمانية، سواء كانت يمينية أو يسارية لأنها إذا فتحت الباب للديمقراطية والحرية ستخسر الانتخابات والساحة الإعلامية والشعبية. ولو كان الليبراليون يلتزمون بالتعريف الذي ذكره الأخ خليل لفعلوا ذلك والحد الأدنى من الالتزام الأخلاقي يفرض عليهم ذلك إذا كانوا صادقين في مبادئهم، وأحيانا يقولون العلمانية لا تعارض الإسلام، وهذا جهل عظيم بالإسلام أو بالعلمانية أو بكليهما.

(5) يعرف الأخ خليل حيدر الليبرالية بأنها الحرية السياسية والاقتصادية وتداول السلطة والاحتكام إلى الشعب... الخ وهذا في أغلبه تعريف يتكلم عن أهداف جميلة تشترك فيها أغلب العقائد والمبادئ والأيدلوجيات، لأن هدفها سعادة الإنسان وحرية وتحقيق العدل والمساواة، وحماية حقوق الإنسان، وهذه أهداف تسعى لها الأديان السماوية، وكذلك كل العقائد العلمانية بما فيها الشيوعية، وبالتالي لا يحق لليبرالية (العلمانية الرأسمالية) احتكار الأهداف الجميلة لأنه لا يوجد خلاف عليها أصلا، ومن يتبنون المبادئ بصدق هم مخلصون لمبادئهم وللبشرية، وإذا جردنا "الليبرالية" من هذا الاحتكار "يسقط" نصفها، أو بتعبير أكثر علمية يسقط أسلوب من أهم أساليب الخداع الذي مارسته الليبرالية عن جهل كشعارهم بأنهم مع الحرية والمساواة والعدل وحقوق الإنسان لأن الخلاف هو أي المبادئ والعقائد التي تحقق هذه الأمور أي ما هو التعريف الصحيح للحرية أو العدل، هل هو التعريف الشيوعي أو الرأسمالي أو الإسلامي أو البوذي... الخ وما هي "الأدلة العلمية العقلية" التي تثبت أن هذا التعريف أو ذاك هو الصحيح.

(6) صحيح أن الليبرالية مع حكم الشعب والديمقراطية وحرية الرأي والقطاع الخاص وهي صادقة في ذلك، وطبقت ذلك دول غربية كأمريكا وبريطانيا إلا أن التزوير الليبرالي واضح في اتهام خصومه وخاصة الإسلام بأنهم أهل الاستبداد والديكتاتورية والجمود والظلام والخرافات... الخ وهذه الاتهامات ليست صحيحة فنحن نؤمن بالشورى وطبقناها، ونحن نؤمن بحرية الرأي والاجتهاد... الخ ولم يكتف الليبراليون بذلك بل شوهوا كثيرا من عقائد وأحكام الإسلام الأخرى، ومن المعروف أنه من السهل أن تشوه الآخرين خاصة إذا كنت ليبراليا أصيلا تستند إلى آراء الفلاسفة وجدلهم واتهاماتهم، ومن المعروف أنه حتى العمل الخيري يمكن تشويهه بالتشكيك في أهدافه ونواياه، أو باتهامه بأنه يشجع الفقراء على الكسل، فالليبرالية إذن تشوه خصومها بالباطل، وتوهم الناس بأن المبادئ الصحيحة كالديمقراطية وحرية الرأي وغيرهما لم تعرفها البشرية قبلها بل إن الأسوأ من ذلك أنها احتكرت العقل البشري كأن الأنبياء والصالحين والعقلاء في تاريخ البشرية كله لم يكونوا يعتمدون عقولهم مع أن المسلمين والمسيحيين واليهود يؤمنون بأن الأنبياء أكثر الناس عدلا ورحمة وحزما وأخلاقا وعبادة وأحكاما... الخ ولم يصلوا إلى هذا النور والعلم والحكمة إلا بمبادئ

سماوية، وعقول مجتهدة وفى المقابل أغلب مفكري الليبرالية من أكثر الناس اختلافا وجدلا وقلقا وتعاسة وتقلبا وضياعا وحيرة وحماسة! فكيف يكون هؤلاء "أهل العقل"؟ إن الموازين فعلا مقلوبة، والبشرية مخدوعة، فالعلم والعقل ليس إذن مرتبطا بقراءة مئات الكتب أو تأليفها فكل أصحاب المبادئ السماوية والعلمانية يؤلفون ولكن المقياس هو كم فيها من حقائق وعلم وحكمة؟ وكم فيها من آراء وظنون؟.

(7) العلمانية الليبرالية الرأسمالية هي كارثة علمية وعقلية لأنها ليست مستندة إلى أدلة علمية فهي قائمة على عدة أسس منها:-

1- الدين المسيحي خطأ، ورجال الكنيسة منحرفون، كما حصل في أوروبا في العصور الوسطى ونحن نتفق معهم في أن هناك تحريف للمسيحية وأن هناك بعض الاجتهادات الخاطئة لرجال الكنيسة ولكن هذا ليس دليلا على أن "الليبرالية" صحيحة فإذا أثبت أن المبدأ الآخر خطأ فليس هذا دليلا أن مبدأك صحيح ، بل قد يكون أسوأ منه. قال ابن تيمية:(وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به، قال تعالى: "بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله " سورة يونس (39)(1).

2- من مبادئ الليبرالية أن الشعب هو مصدر التشريع، وهذا يعنى أن كل شعب من شعوب الكرة الأرضية سيقدر ما هي دساتيره وقوانينه، فلا سلطة أعلى من الشعب، وستختلف الشعوب في قوانينها السياسية والاجتماعية والاقتصادية حسب ما فيها من قوى طبقية وعرقية وفكرية، وما فيها من علم وجهل وثقافة، وهذا يعنى أنه لا توجد مبادئ ليبرالية محددة، فهناك مبادئ أمريكية، وأخرى هولندية، وثالثة برازيلية، ورابعة روسية وهكذا وهذا يعنى أن الاحتكام ليس للعقل والعلم بل للشعب والتصويت والأهواء والمصالح، وهذا معناه لا يوجد حق وصواب، ولا باطل وخطأ في القوانين ، فما يقرره الشعب صحيح وما يرفضه خاطئ، وقد يغير الشعب قراره بعد فترة من الزمن، وهذا شئ طبيعي، لأن الليبرالية قائمة على الآراء والظنون لا الحقائق واليقين، ففي الليبرالية لا توجد مبادئ ثابتة أي لا يوجد علم ولا جهل كلها آراء وهذا قمة الجهل ولم يحلم الجهل في تاريخه الطويل أن يتساوى مع العلم إلا من خلال الفلسفة الليبرالية.

فالليبرالية هي اليوم العدو رقم واحد للمبادئ الصحيحة كعقائد وشرائع، أي هي عدوة للعلم والعقل، وبالتالي فهي العدو رقم واحد للبشرية قال تعالى: "أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب (19) سورة الرعد.

سراب الليبرالية

قال الأخ عبد اللطيف الدعيج في القيس بتاريخ 6 يناير 2002 " الليبرالية تعنى التحرر من كل شئ مسبق. والتحرر ليس بمعنى الرفض أو التجاوز كما يحاول أن يدعي ذلك خصوم الليبرالية في إشارة إلى معاداة الليبرالية للمعتقدات والثوابت، ولكن بمعنى أن تمحيص الأشياء ونقدها واحتمال "تجاوزها" هو أمر وارد ومقبول. فإذا كان صحيحا إن الليبرالية لا تعادى كل شئ فإن الصحيح أن الليبرالية لا تقبل أي شئ أيضا. ليس هناك ثوابت في الفكر الليبرالي، ولا وجود لقيم و"تابوتات" يمنع تجاوزها أو انتقادها فكل شئ يخضع للنقاش، وكل شئ قابل للنقد وكل شئ عرضة للتطوير أو حتى للزوال " ومادام النقد جميلا فسأنقد الليبرالية حتى اثبت إن شاء الله إن منهجها خاطئ وليس صحيحا واليكم الأدلة:-

1- إذا كان ليس هناك ثوابت في الفكر الليبرالي، ولا وجود لقيم فالليبرالية إذن ليست عقائد ولا نظام ولا مبادئ، وليست فكرا، ولا أيولوجية ولا تصورا للحياة أو لدولة فهي إذن ليست أكثر من "حرية النقد" وبالتالي من الخطأ اعتبارها فكرا مخالفا أو متفقا لهذا أو ذاك من العقائد والمبادئ وهي بكلمات مختصرة جزئية صغيرة تطالب بحرية القول والتفكير والكتابة بلا أي ضوابط أو محرمات، فمن الخطأ أن تقول إنني ليبرالي أو أن هناك اتجاه ليبرالي لأنني سأكون عاجزا عن بناء فرد ناهيك عن حزب أو دولة بناء على جزئية اسمها "حرية النقد، لا تحتوى على فهم للحياة ولماذا خلقنا الله سبحانه وتعالى؟ وما هو العدل والحرية والمساواة؟ وماهي الأنظمة التي تناسب البشر وتحقق السعادة لهم؟

2- من البديهي إن الهدف من التفكير والعقل والكلام والنقد والتحليل أن نصل في النهاية إلى الحقائق سواء في العقائد والمبادئ وكذلك في الأمور الاجتهادية، فإن لم نصل إلى ذلك فنحن في بداية الطريق، أو ضائعين، ومن الخطأ أن نعتبر النقد هدف بحد ذاته، بل هو وسيلة، وليس من الصحيح أن تكون الوسيلة هي الهدف.

فالنقد لأجل النقد مضيعة للوقت، بل لا فائدة من الحقائق (العلم) إذا لم نسع لتطبيقها لنستفيد من ثمارها في حياتنا أي الهدف من العلم هو الوصول للعمل وإلا فإنه سيكون العلم مجرد معرفة إبليسية. ولو طبقنا هذا على العلوم المادية لقلنا بأن الهدف من عمل التجارب المخبرية هو الوصول إلى الحقائق المادية التي نستفيد منها في الصناعة والزراعة والطب والحاسب الآلي..... الخ ولهذا نفكر ونحلل ونعمل التجارب ونسجل المشاهدات ونستنتج الحقائق، ولو صرفنا الأموال والأوقات دون أن يكون هذا هدفنا لاعتبرنا مجانين، ولفصلت جميع الحكومات والشركات العلماء الذين يعملون في المختبرات!!

3- إذا كان الوصول للحقائق المادية هو الهدف النهائي والذي يتم بعده الاستفادة من هذه الحقائق في حياتنا، فإن هذه الحقائق تصبح ثوابت و"عقائد" لا مجال لنقدها أو تغييرها، وليست خاضعة للتطوير والزوال حتى ولو مرت قرون كثيرة فهي "مقدسة" وأقول الحقائق "مقدسة". وهناك استنتاجات ظن بعض علماء المادة أنها حقائق ولكنها لم تكن كذلك كما ظن البعض أن الذرة هي أصغر جزء في المادة، وهي فعلاً ليست كذلك بل هناك ما هو أصغر منها أي أن هذا الاعتقاد ليس حقيقة، ولكن كل حقيقة ثابتة ولا تتغير وهذا ينطبق أيضاً في القضايا الفكرية، فوجود الله سبحانه وتعالى حقيقة فكرية لا تتغير، وصدق الأنبياء حقيقة فكرية لا تتغير والهدف من خلقنا حقيقة فكرية، لا تتغير وضرورة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة فكرية لا تتغير، وهكذا فهي ثوابت لا تتطور، ولا تزول، وإذا طبقناها في حياتنا حققنا الخير والربح والسعادة.

4- من المعروف أن بالإمكان النقد مدحا أو ذما إذا لم تكن لدينا معايير صحيحة للخير والشر والحق والباطل والصواب والخطأ فهناك من مدح الشيوعية والنازية والرأسمالية والإسلام..... الخ وهناك من انتقدها. وكما قيل في عالم السياسة إذا نجح الانقلاب سمي ثورة وإذا فشل فهو مؤامرة. فالنقد مدحا أو ذما سيكون بلا فائدة أو محدود الفائدة إذا لم تكن هناك معايير ومقاييس معتمدة "حقائق ومبادئ صحيحة" نقيس عليها فنمدح من يستحق المدح ونذم من يستحق الذم.

5- إذا كان دوران الأرض حول الشمس حقيقة مادية تم إثباتها علمياً، وغير هذه الحقيقة آلاف الحقائق، فهل هناك فائدة من نقدها والتشكيك فيها، وهل يمكن اعتبار ذلك انفتاحاً وحرية رأياً وحكمة ورقياً علمياً؟! .. الخ. طبعاً الجواب لا، لأن هذه حقيقة، والحقيقة لا تخاف من النقد، وعدم نقدها راجع لاقتناعنا العقلي أنه لا فائدة من النقد، والمطلوب أن نتعامل معها، ونستفيد منها في حياتنا، فهذا هو ما يفيد الناس. وكذلك الأمر بالنسبة للحقائق الفكرية كوجود الله سبحانه وتعالى، وصدق الأنبياء، وحقائق القرآن والسنة، فلماذا ننقدها ونحن وصلنا لها بعقولنا، وبالأدلة العقلية التي أثبتت وجود الله سبحانه وتعالى وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فالمطلوب هو الاستفادة منها وتطبيقها في حياتنا.

ومبدأ النقد والتفكير والتحليل هو في البداية كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث كان يبحث عن حقيقة الخالق، فلما اقتنع عقلياً بذلك حسم الموضوع بالنسبة له، وهذا ينطبق على حقائق القرآن والسنة، أما عدا ذلك فهو خاضع للنقد والحوار فلا يوجد شيء مقدس غير الحقائق الفكرية، ولا قدسية للأفراد والدول والحكومات والتاريخ والواقع والتقاليد، ومجال الاجتهاد واسع جداً، وهناك أيضاً اجتهادات ضمن ضوابط في تفسير القرآن والسنة. ومن المعروف أن الإسلام دين واقعي عملي يتجه نحو العمل والإنتاج، ولا يحب الكلام الكثير والجدل في حين أن الفلسفة جعلت ههما الجدل والافتراض، والظن ويختصر الإسلام النقاش الجذري في قضيتين وجود الله سبحانه وتعالى وصدق محمد صلى الله عليه وسلم، فمن آمن بهما بالأدلة العقلية فقد وفر على نفسه النقاش في بقية الحقائق الفكرية لأن ما بني على صواب فهو صواب، أما من لم يؤمن بهما فسيفاش كل جزئية أساسية فكرية كالحرية، أو توزيع الميراث، أو الحقوق الزوجية، وآلاف القضايا الأخرى، والأهم من ذلك أنه لن يصل بالتأكيد إلى يقين وأدلة عقلية قاطعة، إن توزيع الميراث بهذه الطريقة أو تلك هو الحق والصواب أو أن الحرية الحقيقية هي كذا وكذا، وهذه هي الحفرة العظيمة التي سقط بها الفلاسفة والعلمانيون، فاختلّفوا حول كل شيء لاستحالة الوصول للحقائق الفكرية من خلال التفكير العقلي العلماني.

6- ليس صحيحاً أن الله سبحانه وتعالى تركنا بلا حقائق فكرية، أو أن هناك صعوبات كبيرة في الوصول إليها أو أن الطريق إليها معقد

وصعب، بل الأمور واضحة، وهي ما جاء به الأنبياء والكتب السماوية.
قال ابن تيمية : (إن المطلوب كلما كان الناس إلى معرفته أحوج
يسر الله على عقول الناس معرفة أدلته، فأدلة إثبات الصانع
وتوحيده وإعلامه وأدلته كثيرة جدا، وطرق الناس في معرفتها كثيرة،
وكثير من الطرق لا يحتاج إليه أكثر الناس، وإنما يحتاج إليه من لم
يعرف غيره، أو من أعرض عن غيره.) (1)

(1) ص 213 رجال الفكر والدعوة في الإسلام ج 2 أبو الحسن
الندوي.

العلمانيون وكارثة الاختلاف

من المزايا التي يظن العلمانيون "الديمقراطيون" أنهم يتميزون بها
أن تجمعاتهم الفكرية والسياسية قائمة على اختلاف وجهات النظر،
وأن لديهم استعدادا لتقبل كل الآراء ومناقشتها، ولا يشعرون
بحساسية من ممارسة "فضيلة" الاختلاف، وأن لا مانع عندهم أن
يكون قاداتهم مسلمين أو مسيحيين أو زنادقة أو غير ذلك، ويظنون
أن ما يفعلونه هو الحرية والديمقراطية والمساواة الحقيقية، ونقول
لهؤلاء ما يلي :-

1- من الخطأ أن يقوم البناء الفكري للدولة أو الحزب أو الفرد على
"قاعدة الاختلاف" لأن هذا معناه لا يوجد بناء فكري أصلا، أو في
أحسن الأحوال توجد مفاهيم فكرية قليلة كالإيمان بحرية الرأي،
والديمقراطية، والبناء الفكري أكبر من ذلك بكثير جدا، فهو عقائد
وأحكام وأخلاق كثيرة جدا وبكلمات أخرى الفكر الصحيح هو المبادئ
الصحيحة التي تجعل الإنسان راقيا في عقائده وأعماله وأقواله
ومعاملاته، فلا يمكن تجاهل أهمية الفكر ناهيك عن إلغاءها، والفكر
هو الخريطة التي يقوم على أساسها بناء ضخم يتم فيه تحديد أدواره
وحجراته ومرافقه وعلاقته بعضها ببعض، فكيف نظن أننا سنبنني
بناء بلا خريطة ؟ ونظن أننا قادرون على إنشاء هذا البناء الضخم
بالاستمرار في مناقشة بعض الأمور المتعلقة به، والتفاعل مع الواقع
بحسب الأحداث والقضايا المطروحة ، إننا إذا لم نعرف حقائق "
مبادئ" الهندسة المدنية فلن نستطيع أبدا إنجاز البناء مهما توفر لنا
من مواد وعمال وأموال و" مثقفين" ، والأشد جهلا من ذلك هو الظن

أنه لا يوجد علم للهندسة، وكلها آراء، فالاختلاف حول أنواع المواد آراء، والاختلاف حول درجة تحمل الطوابق آراء، والاختلاف حول الأولويات في البناء آراء، والاختلاف حول التوصيلات الكهربائية آراء وكلها سيتم حسمها بالتصويت إن المهندسين يرفضون هذه الاقتناعات، بل الخرافات، ويتمسكون بالحقائق الهندسية، وهذا التمسك ليس تشددا وتعصبا وانغلاقا وتغييرا للعقل وتدميرا للحوار وحرية الرأي كما يتهم العلمانيون الإسلاميين بذلك إذا تمسكوا بمبادئهم الإسلامية .

2- كان الواجب على العلمانيين أن يقولوا أيها الناس نحن نجهل ما هي المبادئ الصحيحة، وأين الحق والصواب ، وأين الباطل والخطأ في الأديان والعقائد العلمانية؟ فنحن لا زلنا في مرحلة النقاش والاختلاف، وبالتالي فنحن لسنا قادرين على معرفة كيف نبني دولة أو فرد ؟ ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل قالوا لنجتمع ونتناقش ونحكم على الأمور بالأغلبية، فإذا اتفقتنا أن البناء لا يحتاج حديدا فلنفعل ذلك ، وإذا صوتت الأغلبية على أنه لا يوجد داع لربط الأسلاك الكهربائية فلننفذ ذلك..... والمشكلة أن الجهل في مجال الهندسة سيظهر فورا إذا كان جهلا أساسيا في حين أن الحياة البشرية تسير بأنظمة رأسمالية أو شيوعية أو يهودية مهما كان فيها من شقاء وتعاسة، ولاشك أن الإسلام هو المنيع الصافي للحقائق الفكرية، وكلما زادت معرفتنا به وتمسكنا كلما زاد نصيبنا من السعادة، وفي نفس الوقت كلما جهلناه حتى ولو كنا مسلمين فقد أصابنا الشقاء بمقدار جهلنا، وكذلك لن يفيدنا معرفتنا بالحقائق الإسلامية إذا لم نتمسك بها، قال تعالى: "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين". (5) سورة الجمعة.

3 - من المعروف أن في علم الكيمياء أو الفيزياء حقائق كثيرة ، وعلاقات وتكامل، والتكامل يوجد في كثير من العقائد الدينية والشيعوية، أي توجد شمولية وترابط بين العقائد والأحكام والأخلاق، أما في الذين يبنون بنيانهم على "الاختلاف" ثم التصويت فلا يوجد شمولية، ولا يوجد تكامل بين "مبادئهم" وقوانينهم، لأنه لا يوجد فهم مشترك لخالق الكون والإنسان والحياة، ولا يوجد وسيلة لربط الاقتصاد بالأخلاق والمعاملات بالسياسة، وقد يتجاهلوا قضايا كثيرة ، وما لا يدخل ضمن القوانين لا علاقة لهم بها، ولو تأمل الإنسان

العقل لوجد أن القسم الأكبر من المبادئ لا علاقة لها بالقوانين فالمواقف الشجاعة والعزة والكرامة والتعامل مع الناس والأمور التربوية لا علاقة لها بالقوانين والاجتهاد الصادق في العمل والعلم، والتعليم لا علاقة له بالقوانين، والانحرافات الأخلاقية بما فيها الخيانة الزوجية فإنه لا علاقة لها بالقوانين، وكذلك النفاق والكذب والحسد والأنانية.... الخ فمبادئنا هي التي تحدد موقفنا من الأحداث، وهذه أمور يجب أن نحدد فيها الحق من الباطل بالعقل والأدلة العقلية، لا من خلال التصويت بكلمات أخرى الوصول للحقائق المادية في الهندسة وغيرها، تم بناء على إثباتات عقلية وليس بالتصويت، وكذلك الأمر في المبادئ الفكرية فالديمقراطية والتصويت يصلحان للقضايا الاجتهادية لا الأساسية فالعلم والعقل والحكمة أرقى من التصويت والحقيقة تبقى حقيقة حتى ولو اعتبرها شعب ما بأنها خطأ بنسبة 100% وإذا كان أعضاء المجلس النيابي يتناقشون وليس لديهم فهم صحيح لهندسة الفرد والمجتمع كما يفعل الديمقراطيون العلمانيون فإن حوارهم ليس علميا ولا عقلانيا، بل جدل يتم حسمه بالتصويت لأن دور العلم والعقل فيه ضعيف، والدور الأكبر للجهل (الآراء) والقوة (الأغلبية).

4- إذا كان أحد أهداف العلمانية الخروج من "الاختلاف" بين الإسلام والمسيحية فهي أقامت بنيانها كله على "الاختلاف"، وهناك اتفاق كبير بين المسلمين والمسيحيين في قضايا كثيرة مثل وجود الخالق، وكثير من صفاته وأسمائه، وعلى وجود جنة ونار، وعلى الأخلاق الفاضلة. ... الخ في حين أن العلمانيين مختلفون حول كل شيء، فمنهم من يؤمن بوجود الله، ومنهم من ينفيه، ومنهم الرأسمالي والاشتراكي والشيوعي.... الخ وبالتالي فالصراع بينهم كبير وجذري فإذا كان المسلمون والمسيحيون مختلفين فالعلمانيون أشد اختلافا، وتفرقا، فهم هربوا من الرمضاء وأشعلوا النار تحت أرجلهم، ولا شك أن الاختلاف يفسد للود ألف قضية إذا كان اختلافا جذريا، بل إن بعض الاختلافات الاجتهادية "في الفروع" تفسد للود ألف قضية، فقيام البناء العلماني على الاختلاف كارثة، وليس ميزة، وقام الإسلام بحسم الاختلافات الجذرية، وبترشيده الاختلافات الاجتهادية، ومن بديهيات العقل أن الاتفاق في العقائد والشرائع و"الاجتهادات" يولد التقارب والتعاون والقوة والوحدة، وأن الاختلاف يولد التنافر والتنازع والتفرق والصراع والضعف، فمن

الصعب بل المستحيل الوصول إلى اتفاق وتفاهم مع من نختلف معهم فكريا، وسياسيا، وأنا أتكلم هنا عن القاعدة لا الاستثناء لأن هناك اتفاقات جزئية، فكيف يقتنع العلمانيون بأن اختلافهم حضارة ورقية وتطور عقلي؟ وقد يقول قائل بأن العلمانيين يعتبرون اقتناعاتهم آراء وليس حقائق كما يفعل المسلم والمسيحي، ونقول الاختلاف الأساسي خطر حتى لو لم يتعصب له أفرادة قال تعالى "مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون" (41) سورة العنكبوت ونضيف لذلك أن المسلمين عندما يجتمعون فلأنهم حددوا ما هي "حقائقهم الفكرية"، وكذلك المسيحيون والشبيوعيون فعقولهم وصلت إلى "شئ" فكيف يكون أكثر تطورا "عقليا" من يقول أن ما عندنا آراء متناقضة وسنحسمها بالتصويت ولا ندري إلى أين سنصل؟

5- لا يعني الالتزام بالحقائق الفكرية الإسلامية رفض الآخرين فكريا وسياسيا واجتماعيا، بل معناه الحقائق الفكرية مقدسة، وفيها مساحة كبيرة جدا لحرية الرأي، وللإجتهاادات العقلية، وللتمثيل السياسي لغير المسلمين، ولحقوق الإنسان، ونعلم أن هناك اقتناعات خاطئة عند بعض المسلمين في تعاملهم مع غير المسلمين، ونطالب المسلمين دولا وجماعات وأفرادا بوضع نظم سياسية واجتماعية تثبت سماحة الإسلام، وتدافع عن الحقوق السياسية للأقليات في الدول الإسلامية وتوضح حدود وضوابط حرية الرأي. ولو أخذنا حرية الرأي الإسلامية لوجدنا أنها تسمح بانتقاد حكام وحكومات ودول ومواقف وعلماء الإسلام بل أكثر من ذلك يدعو الإسلام إلى حوار عقلي وعلمي حول القضايا العقائدية بين جميع البشر، والحرية الإسلامية ضد الكذب والتجريح والسخرية، وما ندعو له واضح في القرآن الكريم، وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأي إنسان عاقل لا يريد حرية أكثر من ذلك؟ لأن أكثر من ذلك يفتح الأبواب للفساد الأخلاقي، وللفتن، وللسفهاء، والمتطرفين، والمرتزة !!.

6- كتبنا وقلنا مرارا بأن الديمقراطية هي جزء من نظام، وليست نظاما فالديمقراطية تعني حكم الأغلبية، وحقوق الأقلية، وحرية الرأي والنظام هو عقائد ومبادئ وأحكام تضع الأسس، وأحيانا التفاصيل العقائدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالصحيح

أن يقال النظام العلماني مقابل النظام الإسلامي لأنه لا يوجد "نظام" ديمقراطي، والنظام الإسلامي يقبل بالديمقراطية بل هي جزء لا يتجزأ منه لأن الشورى ملزمة ولكن هذا لا يعني أن الديمقراطية الأمريكية هي النموذج الذي يحتذي به فالديمقراطية العاقلة هي ديمقراطية أهل الوعي والخبرة والإخلاص وليست الديمقراطية التي يتحكم فيها المال والدعاية والعصبيات الحزبية والطبقية والعرقية، والنظام الغربي نظام علماني يتبنى الديمقراطية، وتوجد أنظمة علمانية ليست ديمقراطية، والنظام الإسلامي يجب أن يكون ديمقراطياً وإلا فهو نظام ناقص أو مشوه فالآية القرآنية واضحة، قال الله تعالى: " وأمرهم شورى بينهم " وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم واضحة، وارجعوا إن شئتم إلى كتاب الشورى وأثرها في الديمقراطية للدكتور عبد الحميد الأنصاري لتقتنعوا أن الشورى ملزمة في الإسلام .

العلمانية كفر وزندقة

لم يصل العقل العلماني إلى فكر محدد هو الحق والصواب، بل أنتج فلسفات وعقائد كثيرة متناقضة كالرأسمالية، والاشتراكية، والشيوعية، والنازية، والوجودية.. الخ وهذه كلها عقائد مخالفة للإسلام، ومناهج متعارضة معه، أي هي عقائد الكفر والشرك والضلال، قال تعالى " فذالكم الله ربكم الحق فما بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون " 32 سورة يونس " فكل العقائد غير الدينية مقبولة عند العلمانيين من الشيوعية إلى الرأسمالية وما بينهما، وكل العقائد الدينية مرفوضة سواء كانت إسلاماً أو مسيحية؛ فالعلمانية هي اللادينية، أي هي المبادئ المناقضة للأديان السماوية، فهل بعد هذا كفر وتمرد على الله سبحانه وتعالى ورسوله وكتبه، قال تعالى " ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه " (130) سورة البقرة ومن المعروف أن المبادئ التي أنتجتها العلمانية تتخذ مواقف معادية للأديان، وخاصة الإسلام فهي تريد تدميره، أو على الأقل حبسه وعزله عن الدولة والحياة السياسية، بل عن كل جوانب الحياة، وهذا واقع مشاهد، فهي ضد الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية، وهي مع فصل الدين عن الدولة، وهي ضد كثير من العقائد والأخلاق الإسلامية! فالعلمانية هي الكفر والشرك واليكم الأدلة :

1- قال تعالى " ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (18) إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين " (19) سورة الباقية .

2- قال تعالى " ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم أمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً (60) وإذا قيل لهم تعالى إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً (61)" سورة النساء

3 - وقال تعالى " أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون " (85) سورة البقرة .

4- قال تعالى " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً " (65) سورة النساء قال بن كثير رحمه الله : (يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة انه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 1/520 ص 28 تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية د . صلاح الصاوي

5- قال الدكتور صلاح الصاوي " وقد أقسم ربنا فى القرآن هذا القسم على نفي الإيمان عن مجرد من وجد فى نفسه حرجاً من قضائه صلى الله عليه وسلم! أين هذا ممن يجلسون من شريعته مجلس الحكم الأعلى يصبون منها ما يشاءون ويقررون منها ما يشاءون ، ويلغون ما يشاءون، ويعدلون منها ما يشاءون، ويزعمون الإصلاح والتقدمية ويدعون التطور والاستنارة، وما دروا أنهم يتخبطون بذلك فى أحوال من الكفر ويتدرون إلى دركات سحيقة من الزندقة والنفاق " ص 30 تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية د . صلاح الصاوي.

6- قال الدكتور يوسف القرضاوي قال تعالى : " وان أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم

وان كثيرا من الناس لفاسقون(49) أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون (50) سورة المائدة . إن العلمانية بمعيار الدين دعوة مرفوضة ، لأنها دعوة إلى حكم الجاهلية، أي إلى الحكم بما وضع الناس لا بما أنزل الله - إنها دعوته تتعالق على الله جل جلاله، وتستدرك على شرعه وحكمه وكأنها تقول لله رب العالمين نحن أعلم بما يصلح لنا منك " ص 83 . الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه د . يوسف القرضاوي .

7- قال الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية (إن هذا الفصل مؤامرة بالدين للقضاء عليه . ولقد كان فى كل بدعه أحدثها العصريون المتفرنجون فى البلاد الإسلامية كيد للدين، ومحاولة للخروج عليه . ولكن كيدهم فى فصله عن السياسة أدهى وأشد من كل كيد " ص 112 تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية د . صلاح الصاوي .

8- قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله : وقد أجمع العلماء على أن من زعم أن حكم غير الله احسن من حكم الله أو أن غير هدي رسول الله صلي الله عليه وسلم احسن من هدي الرسول صلي الله عليه وسلم، فهو كافر كما اجمعوا على أن من زعم أنه يجوز لأحد من الناس الخروج على شريعة محمد صلي الله عليه وسلم أو تحكيم غيرها فهو كافر ضال بما ذكرناه من الأدلة القرآنية وإجماع أهل العلم، يعلم السائل وغيره أن الذين يدعون إلى الاشتراكية أو إلى الشيوعية أو غيرها من المذاهب الهادمة المناقضة لحكم الإسلام كفار ضلال اكفر من اليهود والنصارى " ص 60 تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية د . صلاح الصاوي .

9- قال الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر : فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين. ص 58 تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية د . صلاح الصاوي

10- قال الشيخ محمد الفقى (من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها فى الدماء والفروج والأموال ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنه رسوله صلي الله عليه وسلم فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله . ولا ينفعه بأي أسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة

والصيام والحج ونحوها) ص 59 تحكيم الشريعة ودعاوي العلمانية د . صلاح الصاوي .

11- قال الدكتور يوسف القرضاوي " أما العلمانية في أوطاننا ... فهي ضد الدين ، وضد الدستور ، وضد حقوق الإنسان وضد مصلحة الأمة وأصالتها " ص 79 . الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه د . يوسف القرضاوي .

12- قال د . صلاح الصاوي " إننا أمام قوم يدينون بالحق في السيادة العليا والتشريع المطلق لمجالسهم التشريعية، فالحلال ما أحلته، والحرام ما حرّمته، والواجب ما، وأوجبه والنظام ما شرعته " ص 81 تحكيم الشريعة ودعاوي العلمانية د . صلاح الصاوي

13- قال الدكتور صلاح الصاوي " العلمانيون يفهمون الدين على انه ما يقام في الناس من شعائر العبادات ، وما يدعو إليه الوعظ والخطباء من مكارم الأخلاق، أما ما وراء ذلك من أحكام المعاملات ، وأمور القضاء والسياسة، ونحوه فليس من الدين في شئ والدين منه براء " .

ثم قال : " ولا يخفي أن في القرآن أحكاماً كثيرة ليست من العبادات ولا من الأخلاق المجردة كأحكام البيع والربا والرهن والدين والأشهاد وأحكام الزواج ... بل في القرآن آيات حربية... الخ هذا يدلنا على أن من يدعو إلى فصل الدين عن السياسة إنما يدين ديناً آخر سماه الإسلام " .

ولا يخلو حال الداعيين إلى هذه النحلة من أحد أمرين :

- إما أن ينكروا كل هذا الحشد الهائل من الأحكام ويكذبوا بما جاء فيها من الآيات والأحاديث، وكفر هؤلاء معلوم بالضرورة من الدين .

- وإما أن يقرروا بوجود هذه الأحكام في الكتاب والسنة . وينكروا صلاحيتها للتطبيق، وكفالتها بالمصالح في هذا العصر، وفي هذا المسلك من الزندقة والكفر ما تكاد السموات تنفطر منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، فإن عيب هذه التشريعات عيب للمشرع جل في علاه، وكفر من يجترئ على ذلك معلوم بالضرورة من الدين " . ص 110 تحكيم الشريعة ودعاوي العلمانية د. صلاح الصاوي.

14- قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله : إنني لا أستطيع إلا أن أقول : يحارب الغزو الثقافي يحارب الاستعمار التشريعي ، يحارب الاستعمار التربوي كما حارب الاستعمار العسكري حتى تجلوا عن بلادنا هذه الأفكار الدخيلة التي جاءت مع القبعات الغازية ، ويعود الإسلام لأهله ويكون الدين كله لله " ص 110 المواجهة بين الإسلام والعلمانية د . محمد صلاح الصاوي

15- قال الدكتور احمد كمال أبوالمجد " أما قضية فصل الدين عن الدولة بمعنى إقصاء الدين عن أن يكون له دور في تنظيم أمور المجتمع فإنها المكون الرئيس من مكونات العلمانية الذي لا يسع مسلماً قبوله " ص 530 كتاب القومية العربية والإسلام مركز دراسات الوحدة العربية.

ولنتذكر دائماً حقيقة موقف العلمانية من الدين حيث قامت من أساسها على الابتعاد عن الدين وتذرعت في البداية بوجود انحرافات من رجال الدين المسيحي، ثم ابتعدت عن المسيحية لأنها دين خاطئ، ثم اعتبرت كل دين ومنها الإسلام أديان خاطئة ورجعية وساذجة وسطحية ومتعصبة، وتعادي التقدم والحضارة، وهذا ليس فقط كفر بواح، بل أيضاً جهل لا يوجد أعظم منه في تاريخ البشرية، ثم كانت النتيجة المنطقية أن تبتعد عن الله سبحانه وتعالى دون أن تعلن الحرب الصريحة على معرفته وطاعته والعبودية له، وإذا كان غير المسلمين لا يعرفون الدين الصحيح ومعاني الإيمان والكفر والشرك فإن هذه المفاهيم واضحة في الإسلام، فالإيمان بالله لا يعني فقط الإيمان بوجوده، فحتى كفار قريش كانوا يؤمنون بذلك، واغلب الكفار والمشركين في الأرض يؤمنون بذلك فالإيمان له شروط منها طاعة الله وتحكيم شرعه، وموالاه أوليائه، ومعاداة أعدائه، وغير ذلك . والبيئة المعادية للأديان التي أوجدتها العلمانية جعلت من الطبيعي أن تعلن الشيوعية وهي إحدى مدارس العلمانية نفى وجود الخالق، وان الدين آفيون الشعوب، بل أعلنت أن هذه هي " العلمية " الحقيقية مع أن وجود الله سبحانه وتعالى هو أعظم حقيقة في الكون أثبتتها الأدلة الفكرية، والمادية ولم ينكرها الأغلبية الساحقة من المفكرين العلمانيين والعلمانية الرأسمالية جرأتهم على الكفر والشرك بالخالق، وجرأتهم على التهجم على الدين، وما ينتمي له من علماء وجماعات وأحزاب، وإن كان للشيوعية حسنه فهي أنها كانت صادقة في إعلان كفرها وزندقته في حين أن

العلمانية الرأسمالية تميع القضايا الفكرية، وتهرب منها، وتتجاهلها وتكفر عملياً مع إعلانها الإيمان النظري بالله وبكتبه مستغلة جهل الناس بالمعاني الصحيحة للإيمان والكفر . فالعلمانية الرأسمالية دين جديد له عقائده واحكامه المتناقضة في جوانب رئيسة مع الإسلام والصراع اليوم في جانبه الفكري هو في حقيقته بين الإسلام والعلمانية فليختر كل فرد موقفة أهو مع المؤمنين أم مع الكفار والمنافقين!!

حقيقة العلمانيين

إذا نظرنا في الواقع وجدنا الأدلة الكثيرة التي تثبت أن الصراع هو بين الإسلام وبين العلمانية، وإليكم الأدلة : قال د. فرج فوده: "ببساطة أنا ضد تطبيق الشريعة الإسلامية فوراً أو حتى خطوة خطوة" (1). وقال الدكتور طه حسين: "كل شيء في فرنسا يعجبني ويرضيني، خير فرنسا وشيها، حلو فرنسا ومرها نعيم فرنسا وبؤسها....." وقال "لابد أن نسير سير الأوربيين، ونسلك طريقهم لنكون أنداداً، ولنكن لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشيها، حلوها ومرها، وما يحب وما يكره، وما يحمد وما يعاب" (2) . وأقول إذا سرنا كالأوربيين رفضنا الدين ولا شك أن ليس من العقلانية أن نقلدهم حتى فيما يكره ويعاب، قال الدكتور أحمد كمال أبوالمجد: " وهناك فريق آخر من العلمانيين يتاجر ويزايد ويصفي حسابات تحت ستار المخاوف من الإسلاميين.. والقضية عندهم ليست مقاومة التطرف بأي صورة من صورته، وإنما كراهية أصيلة، وكأنها مرض في القلوب، فهو يكره كل ما هو إسلامي... وهذا مسلك أقل ما يقال فيه أنه شديد الهبوط وشديد الخيانة وعظيم الضرر" (3)

موقف الدول العلمانية من الأديان السماوية موقفٍ عدائي فهي مقبولة ومرضي عنها إذا بقي الدين ضعيفاً مسجوناً في مسجد أو كنيسة، وهو مقبول إذا تكلم في الأمور الأخلاقية والاجتماعية ولم يخرج عن الوعظ والإرشاد، وبعضها يسمح بوجود أحزاب شيوعية أو ملحدة ولكنها ترفض وجود أحزاب دينية وإذا نظرنا إلى واقعنا العربي وجدنا أن فصل الدين عن السياسة أدى وسيؤدي إلى أن يكون عالم السياسة بلا مبادئ ولا أخلاق فالكذب شئ طبيعي ، والاختلاسات شطارة ، والنفاق ذكاء وحكمة ، والغاية تبرر الوسيلة ، ويعني فصل الدين عن السياسة أن كل المبادئ سيسمح لها بالدخول إلى عالم السياسة ما عدا الإسلام أي سنسلم الحكم

والسلطة إلى المفاهيم والتناقضات العلمانية والعصبيات العرقية وأصحاب المصالح وهو يعني أيضا فصل الدين (الإسلام) عن التشريع والتعليم والاقتصاد لأن للسياسة علاقة بكل ذلك.

(1) ص 57 المواجهة بين الإسلام والعلمانية د. محمد صلاح الصاوي .

(2) ص 80 أوهام العلمانية حول الرسالة والمنهج د. توفيق الواعي .

(3) ص 23 من كتاب الإسلاميون والحوار مع العلمانية والدولة والغرب هشام العوضي.

ولم يتجرأ العلمانيون العرب على إعلان حربهم الصريحة على الإسلام، ولهذا يقولون كذبا ونفاقاً ومكراً أنهم مسلمون، وأنهم يريدون الإسلام، لكن اختلافهم وصراعهم هو مع جماعات إسلامية، واجتهادات متطرفة وخاطئة ولكن هذه ليست الحقيقة لأنهم أهل الأفكار الرأسمالية والشيوعية والليبرالية والاشتراكية والعنصرية، ويرفعون بعض أو أغلب شعاراتها وأهدافها، ومن وصل منهم للحكم اضطهدوا علماء المسلمين، وسجنوا بعضهم، وقتلوا بعضهم، وحاربوا أهل الصلاة والمساجد وكان ولا زال العلمانيون هم المدافعون عن كتاب عرب متهمين بالإلحاد والزندقة وهم الذين يضعون دائماً أيديهم بأيدي أعداء الإسلام . فالعلمانيون طابور خامس أعلن خيانتهم العقائدية للإسلام ولو كان العلمانيون صادقين في انتمائهم للإسلام لوضح في حياتهم الشخصية تمسكهم بالصلاة والزكاة والحج وقليل منهم من يفعل ذلك فاختلافهم هو مع الإسلام، وليس كما يدعون مع جماعات أو اجتهادات خاطئة. بل نقول إن العلمانيين الأوربيين ضد الكنيسة، وليسوا ضد المسيحية في حين أننا نجد علمانيين عرب ضد الإسلام ليس فقط في جانبه التشريعي بل والعقائدي والأخلاقي ويقول العلمانيون العرب نحن ضد الدولة الدينية وأقول لا توجد دولة دينية في الإسلام، وليس هناك احتمال لوجود دولة مسيحية في الوطن العربي أو يهودية، إذن أنتم ضد الدولة الإسلامية، ويقولون نحن مع الحرية ونحن كمسلمين مع الحرية الحكيمة العفيفة، وهم يقصدون حرية الفساد الأخلاقي، وحرية الكفر والزندقة، وحرية التهجم على الإسلام، وكان ولا زال العلمانيون يهاجمون الإسلام بطرق غير صريحة، فهو أحيانا مثالي لا يمكن تطبيقه، وأحيانا لا يريدون أن يتلوث الإسلام بالسياسة، وأحيانا مع التدرج في تطبيق

الشريعة، ويقصدون بالتدرج التأجيل للأبد. ويكيلون التهم والشبهات لكثير من عقائد الإسلام وأحكامه ودوله وجماعاته وعلمائه وأفراده، وحتى العمل الخيري لم يسلم من اتهاماتهم، ولا أباغ إذا قلت هم مجموعة تجمع فيها ما قاله الكفار والزنادقة والمنافقون قديماً وحديثاً، ومن حق العلمانيين أن يدافعوا عن مبادئهم ويشرحوها، ولكن ليس من حقهم بأن يقولوا أن الإسلام ليس ضد العلمانية، أو أن الإنسان بإمكانه أن يكون علمانياً ومسلماً في نفس الوقت، فالإسلام علم له كتبه وعلماءؤه، وهو مكتوب بلغة عربية واضحة تبيّن معاني الإيمان والكفر والواجبات والحقوق والتوحيد والشرك وسبيل المؤمنين وعقائد الكافرين.. قال تعالى: (فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون). (43) سورة النحل.

ما نتفق فيه مع العلمانيين

نحن نتفق مع العلمانيين في أن هناك جماعات إسلامية متطرفة بعيدة عن الفهم الصحيح للإسلام، والفهم الصحيح للواقع، ونحن نتفق معهم على أن هناك استبداد كبير في كثير من الدول الإسلامية، وأن تطبيق الشورى بصورة صحيحة ضرورة لابد منها، وأن المشاركة الشعبية من أساسيات الإسلام، والحياة، وأن سلبيات الاستبداد كثيرة وكبيرة، ونحن نتفق مع العلمانيين على ضرورة إنصاف الأقليات الدينية والعرقية، وعلى ضرورة إنصاف المرأة، ونحن نتفق معهم على أهمية الدفاع القوي عن حقوق الإنسان وجعلها على رأس الأولويات، ونحن نتفق معهم على مساحات شاسعة من حرية الرأي والتنظيم والعمل الجماعي، ونحن نتفق مع العلمانيين على أهمية دور القطاع الخاص في بناء التنمية، ونحن نتفق معهم على رفض الدولة الدينية بالمفهوم الغربي قال الدكتور يوسف القرضاوي والدكتور أحمد العسال: "الأمة الإسلامية هي الحاكمة، وهي صاحبة السلطة، هي التي تختار حاكمها وهي التي تشير عليه، وهي التي تنصح له، وتعيّنه، وهي التي تعزله إذا انحرف أو جار، والخليفة في الإسلام ليس نائباً عن الله، ولا وكيلاً له في الأرض إنما هو وكيل الأمة، ونائب عنها"⁽¹⁾. ونحن نتفق معهم على أهمية التعليم والبحث العلمي والإبداع الفكري والتطوير الإداري والتكنولوجي واتباع الأسلوب العلمي في معالجة مشاكلنا، ونحن لسنا ضد الانفتاح على الغرب والشرق والشمال والجنوب والاستفادة من النجاحات التي حققوها والتعلم منها وتطبيقها في بلادنا سواء كانت سياسية أو

اقتصادية أو إدارية، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، ونحن نؤيدهم في ضرورة الحفاظ على الوحدة الوطنية، ونحن مع الوسطية والاعتدال والتسامح والواقعية والاجتهاد العقلاني.

(1) ص 26 أوهام العلمانية حول الرسالة والمنهج . د . توفيق الواعي .

ونحن نتفق معهم على أن حجم الصدق والحرية والشورى والعدل والالتزام بالقانون في الدول الغربية أفضل مما هو في الغالبية من ديار العرب والمسلمين فقد قال الشيخ محمد عبده رحمه الله قبل قرن عندما زار أوروبا : " وجدت الإسلام ولم أجد المسلمين و وجدت هنا المسلمين ولم أجد الإسلام " فالتطبيق العملي للإسلام ضعيف في واقعنا، وذلك لأن الإيمان ضعيف أو مفقود في كثير ممن نسميهم المسلمين، ولهذا نجد ألوانا من الاستبداد، والنفاق، والعصبية العرقية، والتبذير، والكسل..... الخ مما يساهم في إعطاء صورة سيئة عن الإسلام، والمسلمين.

ولكننا نختلف مع العلمانيين في رغبتهم في الابتعاد عن الله سبحانه وتعالى ومعرفته وطاعته وعبادته، ولا نعتبر هذه القضايا ثانوية أو شخصية بل لطاعة الله وعبادته خلقنا، ونحن نريد أن نسير على طريق الأنبياء والمؤمنين لا الفلاسفة والملحدّين، ونحن نريد أن نكون من أهل القرآن والسنة والصلاة لعلمنا أن فيها سعادتنا في الدنيا والآخرة، ونحن نختلف مع العلمانيين في فهمنا للحياة وما فيها من أحداث، فنحن نفهمها على أسس من الحقائق الفكرية، والمادية، ولا نرى الأمور بالموازين المادية فقط لأننا نعلم أن للذنوب والمعاصي والشرك آثار دنيوية وأخرية سيئة ، وصلاح الحياة في محبة الله وطاعته والخوف منه وفي اتخاذ الرسول صلي الله عليه وسلم قدوة، ونعلم أن للأخلاق دورا كبيرا فالتواضع والوفاء والصدق والكرم وصلة الرحم والحلم ... الخ صفات عظيمة من الضروري أن نهتم بها، وتندرب عليها ونحن نعلم أن معرفة الله سبحانه وتعالى والقرب منه أهم من معرفة أمريكا والجري وراء المال والشهوات. ونحن عرفنا عقائد العلمانية بكافة مدارسها، وكذلك العقائد الدينية، فأما بالإسلام لأنه الدين الصحيح، فنحن جيل رأى المدارس الفكرية تختلف أمامه، وتعرض بضائعها فلسنا سطحيين أو ساذجين أو

رجعيين .قال تعالى " أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم (22) سورة الملك وقال تعالى: " قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين (108) سورة يوسف .

نحن نقبل الآخرين

أهديت كتابي " عجز العقل العلماني " لأحد الأخوة المدافعين عن العلمانية وكتب لي بعد أن قرأ القسم الأكبر منه ملاحظات مختصرة أحببت أن أعلق عليها لأن القضية عامة وليست شخصية وأكرر دعوة قلتها قبل عدة سنوات وهي ضرورة أن يكون هناك حوارات علمية بين الإسلاميين والليبراليين فأحد أسباب مشاكلنا أننا لا نتحاور بل نتبادل الاتهامات وسأذكر هنا بعض ملاحظاته ووجهة نظري لعل يكون فيها فائدة :-

1- قال الأخ الليبرالي " واضح أن لديك موقف مبدئياً ومسبقاً مما تسميه " علمانية" ، وأن همك الأساسي هو إثبات خطأ هذه "العلمانية" ، وأقول هذه العبارة تعطي انطباعاً بأنني حكمت على العلمانية قبل أن أدرسها وأفهمها، وأقول موقفي المعارض جاء بعد أن قرأت ما كتب أصحابها وخصومها، واقتنعت بخطورها وضررها على البشر فلا يوجد في نقدي لها اندفاع عاطفي أو وراثي أو تقليد لعالم، والأهم من ذلك أنني أنتقدتها بناء على أدلة عقلية، وبناء على ما قاله أصحابها قبل أعدائها واستندت إلى العقل والمنطق والمراجع، وهنا يجب أن يكون النقاش بين المخلصين، ولا فائدة من النظر إلى أمور أخرى كالموقف المسبق أو المتأخر.

2- قال الأخ الليبرالي : " لماذا أنت معني بإثبات خطأ العلمانية ، أليس في إمكانك ترويج بضاعتك دون ذم بضاعة الآخرين " وأقول أنا مهتم بإثبات خطأ العلمانية لأنها " مرض " يتلف العقول، فيشوه لها مفاهيم الحرية والعدل والمساواة والعبادة الخ وقد ذكرت سلبيات العلمانية في كتابي، ولو قرأت الكتاب بتركيز لما سألت هذا السؤال ؟ أما بالنسبة لذم بضاعة الآخرين فما فعلته ليس سوء أدب مني بل هو واجب إنساني ليعرف الناس البضائع الفكرية الفاسدة، فيتجنبوها، والحوار العلمي يتطلب بيان صواب مبادئك، وكذلك إثبات خطأ مبادئ الآخرين، فنحن لا نتكلم عن غيبة ونميمة أو ذم بضاعة

تجارية، والغريب أن صاحبنا الليبرالي من المؤيدين للنقد، فكيف يتناقض هنا مع مبادئه ؟ وأي حرية رأي ستوجد إذا كان النقد ممنوعاً؟ والأكثر غرابة أن العلمانية قائمة على الجدل والنقد واتهام الآخرين بالحق والباطل وآخر ما يتوقع من أصحابها والمتأثرين بها أن يطالبوك بأن لا تنتقدهم.

3- قال الأخ الليبرالي " أعتقد أن الناس في إمكانها أن تتعايش شيوعيين كانوا أو علمانيين أو متدينين، ولكن بشرط أن يقبل كل طرف بالطرف الآخر إن مشكلة المتدينين والمسلمين أمثالك بالذات أنهم لا يقبلون الطرف الآخر " وأقول نعلم كمسلمين أن الناس مختلفين في عقائدهم، وأن التعايش بينهم هو الأساس، ولا نحارب الناس لأنهم يختلفون معنا في عقائدهم، ولا نسعى لإكراههم حتى يؤمنوا بالإسلام، والمسلمون يتعايشون ويتعاملون مع كل شعوب العالم على اختلاف عقائدهم في تجارة وسياحة وتعليم، ولا توجد مشكلة في قبولهم أما على مستوى الدولة وعقائدها ونظامها فالأمر بسيط، فلنقبل ما تختاره الأكثرية كنظام، فإذا قالت أغلبية الشعب نريد العلمانية فهم أحرار في أن يطبقوا النظام الشيوعي، أو الرأسمالي، أو الاشتراكي، وأن يختاروا ما شاءوا من مفاهيم " خاطئة " للحرية والمساواة والعدل، وأما إذا اختاروا الإسلام وقالوا نريد أن نكون مسلمين فالعقائد والأحكام الإسلامية واضحة، ولن يكون الحاكم مسيحياً ولا وزير الدفاع يهودياً، ولن تطبق المفاهيم العلمانية للحرية ولقبول الآخرين، ولنتذكر بأن الديمقراطية قائمة على حكم الأكثرية، وأن القبول فيها بالأقلية لا يعني أن المساواة مطلقة بينهما، فأراء الأقلية مرفوضة وستخضع لحكم الأكثرية، ولو تأمل صاحبنا لوجد نفسه يفرض المفاهيم العلمانية لقبول الآخر على الآخرين بل يريد فرض النظام العلماني على الآخرين حتى لو كان الآخرون أغلبية ساحقة تؤمن بالإسلام كما في دولنا العربية المسلمة فأما النظام العلماني وإلا فنحن متعصبون وجهلاء وأعداء للآخرين إذا طالبنا بالنظام الإسلامي.

4- كثير ما يظن العلمانيين أننا نتعصب لمبادئنا الإسلامية وأن في بعض أحكامها تعصبا وتطرفا وقسوة أو تخالف العدل أو غير ذلك ونقول لا يوجد أبداً في شريعة الله سبحانه وتعالى تطرف أو تعصب أو ظلم لأن الله لا يأمر إلا بالعدل والحق والعقول التي ترى غير ذلك هي عقول ضائعة تظن السراب ماء ونحن نتكلم هنا عن الحقائق

الإسلامية لا الاجتهادات وحسم الخلاف هنا يكون بأن تناقش الأصول بمعنى إذا أثبتوا لنا أن الله سبحانه وتعالى لم يأمر بكذا أو كذا فسننتخلى عنه فوراً أما إذا لم يكن عندهم أدلة إلا الظن واتباع الهوى وعقول الفلاسفة العلمانيين ومفاهيمهم عن العدل والظلم فهي أمور نرفضها لأننا لا نريد أن نكفر بعد أن هدانا الله سبحانه وتعالى للإيمان ولأنها مفاهيم خاطئة بدليل تناقضهم فيما بينهم في مفاهيم الحرية والعدل .

5- هل المبادئ الإسلامية خطر على الإنسانية ؟ وهل المبادئ العلمانية هي المنقذ لها من التعصب والحروب والظلم نقول إن العلمانية أنتجت الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والنازية الخ، وأنتجت أنظمة متصارعة صنعت الحروب والظلم والاستعمار والكراهية كما شاهدنا في القرن العشرين، والعلمانية الرأسمالية ليست عندها مبادئ محددة، فمبادئها نسبية ومتغيرة، وتحركها المصالح والشهوات والانفعالات، وهذا ما تفعله الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تعلن صراحة بأن مصالحها تعطى الحق في أن تفعل ما تشاء في العالم حتى ولو خالفت بديهيات الحق والعدل ومواثيق الأمم المتحدة، فمن أجل مصالحها تعلن الحروب، وتتآمر على الشعوب، وتقول من ليس معي فهو ضدي ، والعلمانية أنتجت بمبادئها الجاهلية الضياع العقائدي والإلحاد والكفر والتعاسة الشخصية والتفكك الاجتماعي والفساد الأخلاقي وعبادة المال، وهذه الانحرافات غير موجودة في حياة المسلمين الملتزمين، وهذه أمثلة حية نشاهدها بأعيننا، فهل المبادئ الإسلامية هي الخطر على الإنسانية ؟ ولا شك أن الجوانب الإنسانية والأعمال الخيرية لا تقتصر على المسلمين، ولا على الفكر الإسلامي لأننا نجد أجزاء منها عند العلمانيين والمسيحيين وغيرهم، قال تعالى: "ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (82) سورة المائدة ولا شك أن الرقي الإنساني بمختلف جوانبه العقائدية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية يتجسد فقط في المبادئ الإسلامية.

6- أخي الليبرالي لا زلت أدعو لحوارات طويلة وعلمية ومنظمة حتى تستطيع أن تحكم العقول حكما صحيحا معتمدا على أدلة عقلية لا الشبهات والظنون، ولا شك أن الموضوع طويل ومتشعب لأنه يتعلق

بالأديان السماوية والعقائد العلمانية والشعارات والمبادئ والفلسفة والعلم والتاريخ والدول والأحزاب والجماعات والسياسة والأخلاق والتسامح والتعصب والتطرف والاعتدال والحرية والديمقراطية، ولن نصل إلى الحقائق إذا كان البعض منا واثقا إلى درجة أنه لا يريد أن يستمع، ولا يريد حوارات تفتح للعقل الأبواب ليفكر بعمق وهدوء وأدلة، قال تعالى : " هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم " (9) سورة الحديد.

الفتاوى الإسلامية للعلمانيين

جرى بيني وبين أحد المدافعين عن العلمانية حوار دفعني لكتابة هذا المقال لتوضيح جوانب من الفهم الخاطئ للإسلام عندهم :-

1- يرى بعض العلمانيين أن العلمانية ليست ضد الدين، وهي تهتم بأمور الدولة والسياسة، ولا تتدخل بالأديان، فالعلمانية تعني أن الدولة بلا دين، وأقول الإسلام دين ودولة، وعقيدة وشريعة، ولا يقبل من المسلم أن يؤمن ويطبق الإسلام في الأمور العقائدية والاجتماعية، ويرفضه ويكفر به في الأمور السياسية والتشريعية، وما أقوله ليس اجتهادا أو رأيا بل هذا من المعلوم من الدين بالضرورة، وتوضحه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فلا اجتهاد مع نصوص صريحة، وبناء على ذلك فالمسلم لا يمكن أن يكون علمانيا، ولا شك أن رفض تطبيق الشريعة الإسلامية معناه أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بشريعة لا تحقق العدل والرحمة، وأن العلمانيين قادرون على تشريع أفضل وهذا كفر صريح لا خلاف عليه، فهم يجعلون أنفسهم أعدل وأرحم وأعلم من الله سبحانه وتعالى، وواضح جدا أن العلمانيين لا يعرفون معنى كلمة الإسلام، فالإسلام يتعامل مع القوانين والأحداث السياسية والعدل والمناصب والعصبيات العرقية، وأنظمة الحكم والنظم المالية، والعقوبات والتعليم والتربية..... الخ ، فلا يمكن فصله عن الدولة.

2- لا يجوز أن يكون للمسلم عقائد واقتناعات تخالف آيات قرآنية وأحاديث نبوية كأن يقول أرى أن العلمانية لا تخالف الإسلام، أو أنا مع روح العقوبات الإسلامية لا حرفيتها، أو أن الاجتهاد في الإسلام ليس له حدود وشروط، أو ضوابط أو غير ذلك، ومن البديهي أن

على عبد الرزاق قبل قرن، والذي قال بأن الإسلام دين وليس دولة، ويرفضون آيات وأحاديث تثبت خطأ هذا الرأي، ويرفضون اجتهادات مئات من علماء الإسلام، ونقول تتبع الاستثناءات والحالات الشاذة ليس من الموضوعية والحكم على صواب عقائد وأحكام لا يكون بالنظر العقلي المباشر لكل جزئية فكرية لأن الجزئيات كثيرة جدا، بل بالحكم على صواب أو خطأ القواعد " الأصول " الفكرية، ونذكر بأن الانتقائية يستخدمها العلمانيون كثيرا فتراهم يسلطون الأضواء على إيجابيات الغرب لا سلبياته، وعلى سلبيات واقعنا بحكوماته وجماعاته وأحزابه وأفراده، ويتجاهلون إيجابياتنا مع أنها كثيرة.

5- أقول وأكرر وبصوت عال هناك اجتهادات خاطئة لعلماء وجماعات إسلامية وخاصة في الموقف من الديمقراطية، والأحزاب، والعلاقة مع غير المسلمين، والفهم لبعض قضايا الواقع السياسي، وقد شاهدنا مواقف خاطئة أو متخاذلة وضعيفة من قضايا سياسية واجتماعية كالاستبداد والظلم وحرية الرأي والتعصب العرقي، ونحن نطالب الملتزمين بالإسلام بالتطبيق الصحيح للإسلام، وفي المقابل وجدنا مواقف طيبة ومشرفة من العلمانيين والمتأثرين بالعلمانية في بعض القضايا السياسية والاجتماعية، وخاصة حرية الرأي والديمقراطية، والموقف من الأقليات، ومن الخطأ أن يكون موقف العلمانيين والمتأثرين بالعلمانية من الإسلام هو رد فعل لانحرافات لدى بعض الجماعات الإسلامية أو الاجتهادات الخاطئة لعلماء، وأقول الإسلام مع أن تكون الشورى ملزمة، ومع حرية الرأي العاقلة، وحقوق الأقليات ، وتشجيع القطاع الخاص، والانفتاح على الآخرين الخ وتمسكنا بالإسلام هو الطريق لتقليل الانحرافات داخل الاتجاه الإسلامي وخارجه، ولا يوجد طريق آخر قال تعالى: "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نور يمضي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون" (122) سورة الأنعام.

6- أقول للعلمانيين من العرب إذا كنتم تريدون حقا الإسلام الصحيح فطريقه معروف، وهو موجود في القرآن والسنة، وهو علم له علماؤه وليس مقبولا لا عقلا ولا شرعا ولا منطقا أن تحددوا أنتم ملامح الإسلام وحدوده وعلاقته بالدولة والحياة، كما أن ليس من الأخلاق العلمية أن يتم التعامل مع علم الإسلام من باب التشويه والكذب والنفاق والخداع بإعلان إيمانكم بالإسلام وأخفاء كفركم به

لأن في هذا خداع للناس، ولأن الكذب والنفاق من أسوأ الصفات ولا يقبل في مجال المبادئ والعقائد كذب وابتعدوا عن صناعة إسلام علماني فالإسلام أكبر وأقوى بكثير مما تظنون لأن الله سبحانه وتعالى ناصره قال تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون " (90) سورة الحجر.

مشكلة الشرع والعقل

اين ينتهي الشرع؟ وأين يبدأ العقل؟ سؤال خاطئ وإجابته ستكون خاطئة. هذا السؤال فلسفي وبيزنطي وتفلسف لا معنى له. فالشرع هو النور والعقل هو البصر فأين ينتهي النور؟ وأين يبدأ البصر؟ هذا السؤال فلسفي لأن المطلوب أن تبصر وتسير في طريقك لا أن تقف وتفكر بمشكلة غير موجودة. فبالعقل والأدلة العقلية عرفنا أن وجود الله سبحانه وتعالى حق وأن محمداً رسول الله وسنحتاج للعقل حتى نفهم القرآن والسنة وسنحتاجه حتى نفهم الواقع والمخلوقات والكون وحتى نجتهد في أمور ديننا ودنيانا. فلا يوجد مشكلة أو صراع أو تناقض بين الدين والعقل حتى نضع لهما حدوداً دولية لكي لا يعتدي طرف على الآخر ما نقوله هو شيء مطبق عند ملايين المسلمين الملتزمين فلا توجد في حياتهم العقائدية أو السياسية أو الاجتماعية أو الشخصية أو الاقتصادية مشكلة بين الدين والعقل أو الدين والدولة هم يتعلمون ويعملون ويتاجرون ويصنعون ويتزوجون ويضحكون ويعيشون من المهد الى اللحد بدون أن يواجهوا يوماً مشكلة اسمها أين ينتهي الدين؟ وأين يبدأ العقل؟ ولكن العلمانيين أو من تأثر بهم يغرقون في ما لا يغرق فيه ويعيشون في مشاكل وهمية وهذا شيء طبيعي لأنهم أبناء الفلاسفة الذين من طبيعتهم الجدل والكلام الكثير والعمل القليل والظن بأن الإسلام يقدم النقل (القرآن والسنة) على العقل ظن صحيح ولكن ليس معنى ذلك وجود تعارض بينهما فالعقل هو الذي وصلنا به لوجود الله سبحانه وتعالى وصدق النبي صلى الله عليه وسلم وبالتالي فإن كل ما في القرآن والسنة صحيح عقلياً فكيف يأتي بعد ذلك العقل ليقول يوجد تعارض بيني وبين آية قرآنية ولا يمكن أن تأتي حقائق مادية جديدة لتعارض حقيقة قرآنية فالحقائق لا تتناقض فالخلل سيكون في فهمنا للحقيقة القرآنية أو للحقيقة الفكرية أو المادية الجديدة قال الإمام الغزالي "إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول" (1).

(1) ص 25 سقوط الغلو العلماني د. محمد عمارة

ونحن نختلف مع بعض المحسوبين على أهل الحديث ممن يتطرفون في بعض اقتناعاتهم فيتمسكون بصورة عمياء بالنصوص دون دور للعقل فهم يقللون من أهمية الاجتهاد والتفكير وقراءة الواقع وفهم المقاصد وقد ذكر بعض الأمثلة الإمام ابن الجوزي في كتابه "تلبيس إبليس" وأصحاب الحديث الحقيقيون هم أهل التفكير والتأمل والاجتهاد وهم الذين قال عنهم الإمام أحمد بن حنبل امام أهل السنة والجماعة عندما سئل عن الفرقة الناجية "إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم" وإذا كان هناك من العلمانيين من يشكك بصحة بعض الأحاديث النبوية. فاقول دور العقل هو التأكد من نسبتها الى الرسول وقد بذل علماء المسلمين أقصى ما يستطيع الجهد البشري للتأكد من صحة الأحاديث ووضعوا الكتب في الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة وهو ما لم يحدث في تاريخ البشر كله وكلما ابتعدنا عن الأحاديث النبوية فرح أصحاب العقائد المنحرفة والأهواء والزنادقة والعلمانيين.. الخ ويكفي أن نتذكر أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا خير البشر وأكثرهم التزاماً بالأحاديث قال الإمام أحمد بن حنبل "أهل الحديث أفضل من تكلم في العلم" (1) ويظن العلمانيون أن الالتزام بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية هو نوع من السطحية والبدائية وفيه تعطيل للعقل والفقه وهذا الظن خاطئ جداً لأن أهم العلوم هو معرفة آيات القرآن والأحاديث النبوية فهذا هو العلم الصافي الذي يبنى عليه الاجتهاد والعمل والعدل والحكمة والحرية والقانون والعبادة والحياة الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية أما ما خالفه من آراء الفلاسفة ومفكرين وسياسيين فهي مبنية على الظن والشك والعادات والتقاليد والأهواء والمصالح والعصبية أي هي جهل في جهل حتى لو كان بعضها صحيحاً بالصدفة.

(1) ص 67 مكانة أهل الحديث للشيخ ربيع هادي المدخلي

الكلمة الإسلامية

يتعرض العلم الفكري في عصرنا هذا إلى حرب ثقافية أسلحتها الكتب والمجلات والجرائد والتلفاز والإذاعة والجامعات والمدارس والفلاسفة وكثير من المثقفين والصحفيين والسياسيين... الخ وينشر

هؤلاء حتما هائلا من المعلومات وتحاليل فاشلة، وعقائد خاطئة، وأهداف مشوهة، ومواضيع ثانوية وتافهة، ولا أبالغ إذا قلت إن 90% من هذه المعلومات يضر ولا ينفع مع أنها تتحدث عن العدل والحرية وحوار الحضارات والدين والدولة والحقوق والواجبات والأحداث السياسية والإصلاح؛ فهي تبعد الإنسان عن العلم المفيد له في حياته الشخصية والعامة، وعلينا أن نفرق بين الثقافة والعلم. فهناك فرق شاسع بينهما، فالثقافة تزداد بزيادة ما تقرأ أو تسمع وتشاهد في مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والعقائدية والاجتماعية والإدارية والتاريخية والأدبية... الخ في حين أن العلم الفكري هو معرفتك بالحقائق الفكرية الأساسية التي تحتاجها في حياتك الشخصية والأسرية والسياسية، فإذا لم تكن تعرف الحقائق الفكرية فأنت جاهل حتى ولو كنت أكبر مثقف عرفته البشرية إنك بالتأكيد لست صاحب علم ينير لك طريقك في الحياة ، وعشرة صفحات تزيدك علماً أفضل من آلاف الصفحات تتعب بصرك بلا فائدة حقيقية! وما أكثر الناس الذين تشفق عليهم مما يقرءون من روايات ومجلات وسير ذاتية وكتب فلسفية! فالثقافة كارثة إذا زادت عن حدها وهي كارثة عظيمة إذا أخذت وقت العلم أو اعتبرت بديلاً عنه . وحتى نحدث ثورة في الثقافة والعلم الفكري فإنني اقترح ما يلي :-

1- الطريق المختصر للحق ولبناء حياة البشر على أسس عقائدية وسياسية واجتماعية وتربوية صحيحة هو قال الله وقال رسوله وليس هو في مئات الصفحات كتبها فيلسوف ضائع، ولا هي في مفاهيم إصلاحية كتبها مفكر أمريكي أو صيني، أو في حلقة تلفزيونية تعتمد على الآراء والظنون والتجارب الشخصية. هذه وغيرها مضيعة للوقت حتى لو أعطتنا بعض الثقافة والمتعة علينا أن نعرف خالقنا وصفاته وكيف نعبده؟ وبماذا أمرنا؟ وعلينا أن نشغل وقتنا بالأعمال الصالحة الدنيوية والأخروية. إن أهم ثروة للبشرية هو وقتها وهي تضيع الجزء الأكبر منه فيما لا يفيد. وما أدعو إليه هو ما فعله الأنبياء والعلماء الواعون فاقراءوا حياتهم وستجدون إن شاء الله هذا واضحاً، وأقول وأكرر: الإسلام دين عملي يبحث عن العلم المفيد ليطبقه قال الإمام أحمد بن حنبل "لا أحب الكلام فيما ليس تحته عمل" والعلمانية منهج فلسفي جدلي يهمل الكلام والنقد فلنفكر كيف نحقق تنمية سياسية واجتماعية معتمدين على مبادئ الإسلام وحقائق الواقع حتى نحول ذلك لخطط وأعمال تفيد مجتمعاتنا.. أنقذوا العلم من كلام الضائعين وجدلهم.

2- إن الحوار مع غير المسلمين يجب أن يركز على قضيتين: وجود الله سبحانه وتعالى، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، لا على مفاهيم الحرية والعدل والتاريخ وحقوق الإنسان وحوارٍ وصراع الحضارات. وأخطأ كثير من المثقفين المسلمين وأحياناً بعض العلماء في الاهتمام بالثقافة الغربية، وقراءة ما كتب فلاسفتها ومفكروها، وتجهيز الردود عليها ومحاورتهم، وأفضل نموذج لهؤلاء علماء الكلام في الخلافة العباسية حيث استخدموا الأسلوب الفلسفي والمصطلحات الفلسفية. وعيب علينا كمسلمين بعد أن تعلمنا أن الكلام المفيد في القرآن والسنة أن نتفلسف. إن أي قارئ لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم يجد الفائدة والنور والحكمة والاختصار والبلاغة والعقلانية والحق والصواب. وأدعو إلى حوار حضارات مع العالم الغربي، ولكنه حوار له أهداف أهمها هو الوصول إلى العلم الفكري، ومن خلال التركيز على الأدلة التي تثبت صواب مبادئنا أو مبادئهم ومناقشتها بعمق وعقلانية.

3- من الأخطاء التي نجدها هو تركيز بعض المسلمين في العلم الفكري (الإسلام) على بعض المواضيع مثل العبادات والأخلاق مع إهمال قضايا عقائدية وسياسية واقتصادية هامة كالعلمانية وحقوق الإنسان والشورى والإنتاجية في العمل والعمل الجماعي والتعاون الاقتصادي والتعصب العرقي، ومفاهيم الإصلاح والعمل الخيري.. فمن الخطأ أن نجد مئات الكتب تتكلم عن الصلاة، وأغلبه كلام مكرر، ولا نجد عشرات الكتب تتكلم عن الشورى، أو الإنتاجية في العمل والصدق، فلا بد من إيجاد توازن في العلم لدى المسلمين والغريب أن كثيرا من المسلمين اليوم لا يهتم بإتقان عمله الوظيفي كأن هذا ليس من الإسلام، ونجد كثيرا منهم يتعصبون لقبائلهم وشعوبهم بدون أن يسمعون من يقول لهم إن هذه جاهلية منتنة. وأطالب بالقيام بثورة في الكتب الإسلامية، وخطب الجمعة، والمجلات الإسلامية، تعيد ترتيب أولوياتنا العلمية الإسلامية بطريقة صحيحة خطوطها العريضة تركز على العلم لا التراث، وعلى الواقع لا التاريخ، وعلى العمل لا الكلام، وعلى بناء النموذج الإسلامي لا رد الفعل على أقوال وأحداث، فليس مقبولا أن نجد الشورى غائبة في أغلب دولنا في مجالاتها السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، ولا نجد إلا القليل من الاجتهاد في هذه المواضيع.

4- لست ضد الاطلاع على الخطوط العريضة لثقافات الشعوب الغربية والشرقية، ولكن ضد أن نغرق في تفاصيلها وندّعي أننا نعلم أن العلم أهم من الثقافة بآلاف المرات، ولست ضد أن نعرف التاريخ، ولكنني ضد أن يأخذ من وقتنا أكثر من واحد في المائة مما يأخذه الحاضر والمستقبل، ولست بالتأكيد ضد الانفتاح والاستفادة من تجارب العقل البشري الصالحة والفايدة في مختلف المجالات، ولكنني ضد أن ننسى أن العمود الفقري للعلم الفكري هو القرآن والسنة، وما أريده هو أن نختصر ما يقال ويكتب ويشاهد في العالم بنسبة 90% لأنه أغلبه لا فائدة منه وكثير منه مضر. قال ابن تيمية: "وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مع أنهم أكبر الناس علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، أقل الناس تكلفاً يصدر عن أحدهم الكلمة، والكلمتان من الحكمة، أو من المعارف ما يهدي الله به أمة، وهذا من منن الله تعالى على هذه الأمة، وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكاليف والشطحات ما هو من أعظم الفضول المبتدعة، والآراء المخترعة" (1)

(1) ص 216 رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن الندوي .

وأقول لمن ليس مقتنعاً بما أقول: أقرأ ما كتب في العالم عن "العدل"، وانظر فيما ستصل إليه من مبادئ واقتناعات وستجد أن التعريف العقلي العلمي هو التعريف الإسلامي، وما عداه فهو مجرد آراء فيها صواب وخطأ، فابدأ من حيث ندعوك لا تنتهي من حيث نبدأ نحن فهذه الرحلة لا داعي لها، وكثيرون قبلك جربوها كما قال الرازي "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروى غليلاً" وقال: ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا وقال الجويني: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به!! (1) وقال الإمام أحمد بن حنبل: "لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة" وقال الإمام الشافعي: "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام" (2).

(1) ص 43 العقيدة في الله د. عمر سليمان الأشقر.

(2) ص 42 العقيدة في الله د. عمر سليمان الأشقر.

شبهات علمانية ظالمة (1)

ما أكثر الاتهامات التي يوجهها العلمانيون للإسلام، والتي إذا درسناها سنقتنع بأنها خاطئة وظالمة، وليست لها أي أساس من الصحة واليكم بعضها :-

1- مبادئ قديمة : هل تريدون أن نعيش بعقائد واقتناعات مضى عليها خمسة عشر قرنا ونحن في عصر الإنترنت والطائرة والعولمة ؟ ونقول من قال إن المسلمين لا يؤيدون استخدام الطائرة والإنترنت والطب الحديث.. الخ فكل البلاد الإسلامية تسعى لذلك، وكثير من المسلمين تخصصوا في علوم الهندسة والتكنولوجيا فهذا الاتهام باطل من أساسه، فلا توجد معارضة فكرية إسلامية لهذه العلوم ، فالعلمانيون يفتعلون مشكلة غير موجودة أصلا، أما بالنسبة للمجال الفكري فحقيقته ثابتة حتى ولو كانت قبل خمسة عشر قرنا ، فوجود الله سبحانه وتعالى حقيقة فكرية لا تتغير مع الزمن، وكذلك صفاته، وشريعته، والإنسان هو الإنسان يضحك ، ويبكي ويحب ويكره ، ويؤمن ويكفر، ويصدق ويكذب، ويعدل ويظلم.. الخ هكذا كان الإنسان قبل خمسة آلاف سنة، وهو كذلك حاليا، وسيبقى كما هو إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها. والشيعوية عقيدة حديثة كنظام وكدول، ومع هذا فقد ثبت فشلها النظري والعملي، وكل أقوال الفلاسفة الحديثة هي نفسها أقوال الفلاسفة القدماء ، أي كلها آراء موجودة منذ أكثر من ألفين سنة، فالإلحاد قديم، والإيمان قديم ، والاختلاف حول معاني الحرية والعدل قديم، وهكذا فكل المبادئ الصحيحة والخاطئة (الدينية والعلمانية) قديمة، وباختصار تحديد الحق من الباطل في المجال الفكري والمادي أيضا ليس قائما على القديم والحديث بل على الأدلة التي تثبت أنه حق أو باطل.

2- العقول الجامدة : تمسكنا بالحقائق الفكرية الإسلامية (القرآن والسنة) ليس معناه إطلاقا أننا نجمد عقولنا، وأنها لا تفكر ولا تحلل، فالفقه الإسلامي كله اجتهادات عقلية، والاجتهادات تصيب وتخطئ، ومساحتها واسعة جدا، ورفض علماؤنا التعصب لمذاهب أو اجتهادات، وعارضوا الجمود الفكري والتقليد ، وبلغ من تشجيع الاجتهاد أن المجتهد المخطئ له أجر، فهل هناك تشجيع على العلم والتفكير والتأمل أكثر من ذلك ، وبلغ من تشجيع العلم والقراءة أن الله سبحانه وتعالى جعل العلماء هم ورثة الأنبياء، قال تعالى: "يؤتى

الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب " (269) سورة البقرة ، وقال تعالى " وقل رب زدني علما " (114) سورة طه. ونحن لا نتكلم عن الجانب النظري فقط بل ندعو للنظر في واقع المسلمين، وتحليله وهناك آيات كثيرة جدا في القرآن تدعو للعلم والتفكير والتأمل في مخلوقات الله والكون وواقع البشر..... الخ والمكتبة الإسلامية بها آلاف كثيرة من الكتب التي تثبت دور العقل والثقافة والعلم في حياة المسلمين، وأقروا إن شئتم في كتب ابن القيم أو أبي حامد الغزالي أو ابن الجوزي وغيرهم كثير جدا لتتعجبوا من ذكائهم وثقافتهم وحكمتهم وتنوع علومهم، ولكن مشكلة بعض العلمانيين أنهم لا يعرفون ثقافتنا وبيدهيات الاجتهاد، ومع هذا يتهموننا بالجمود العقلي، فهل هم علميون حقا!!

3- الاختلاف الفكري : يرفض بعض العلمانيين تطبيق الشريعة الإسلامية لأن هناك فرق كثيرة ، واجتهادات مختلفة، وبالتالي فما الذي سيتم تطبيقه ؟ ونقول: إن المسلمين بشكل عام مع اختلاف فرقهم متفقون على قضايا كثيرة جدا، فطبقوها كما أن الأغلبية الساحقة من العرب هم من أهل السنة والجماعة، ولا توجد وحدة فكرية أكثر من ذلك، ولا توجد بينهم اختلافات أساسية، وأما الاختلافات الاجتهادية فهذا شئ طبيعي، وفي نفس الوقت الاختلاف بين العلمانيين هو في الأسس الفكرية فهناك علمانيون رأسماليون وهناك علمانيون اشتراكيون وهناك شيوعيون وهكذا وإذا قلنا للعلمانيين اجمعوا علماء الإسلام ليقرروا الصواب فيما لديكم فيه غموض (إذا كان هناك شئ غامض) قالوا من الذي يحدد علماء المسلمين لأن عندهم أن كل علماء المسلمين لا يصلحون! فهذا متطرف، وهذا رجعي، وهذا من وعاظ السلاطين، وهكذا، ونقول: علماء المسلمين الصادقون الواعون معروفون ويشهد لهم الناس ويشقون فيهم أكثر من ثقتهم بالعلمانيين.

4- البيئة الملوثة: من الشبهات التي يثيرها العلمانيون هو ضرورة توفير البيئة المناسبة لتطبيق الشريعة، وهذه كلمة حق أريد بها باطل، لأنهم لو كانوا صادقين لطالبوا بالإعلام النظيف والمناهج التعليمية الإسلامية ومساعدة الفقراء وغير ذلك، ولكنهم يريدون تأجيل تطبيق الشريعة للأبد بحجة التدرج في تطبيق الشريعة، والغريب أن الاشتراكيين واليساريين لا يطالبون بتطبيق الزكاة مع

أنها تفيد الفقراء، وذلك رغبة منهم في مخالفة الإسلام حتى ولو حقق بعض أهدافهم ، فهم يخربون بيوتهم بأيديهم، ومن الشبهات التي يثيرها العلمانيون هي أن الدين شئ سام ونقي ويجب أن نبعده عن الحياة السياسية، ونقاء الدين لا يتعارض مع ما في الحياة السياسية من حق وباطل بمعنى أن النظام الإسلامي السياسي سيقف مع الحق والصواب والمبادئ قدر ما يستطيع، والإسلام لا يمنع السياسي المسلم من الخداع والمناورة إذا تطلب الأمر ذلك، فالحرب خدعة، ونضيف إلى ذلك أن التلوث يصيب الحياة الاجتماعية والاقتصادية فهل نبعد الإسلام عن كل هذه المجالات؟ وماذا يبقى له . !!!

5- الأقوال الشاذة : هناك عشرات الآلاف من العلماء والخطباء والكتاب الإسلاميين، وكثيرا ما نجد كتابا علمانيا يختار بعض الأقوال الشاذة لخطيب أو جماعة أو كاتب أو اجتهاد خاطئ لعالم، ويجعل منها حكايات ودليلا على تطرف المسلمين وتعصبيهم وسطحتهم، ولو فعلنا مثل ما يفعل العلمانيون لوجدنا آلاف الأمثلة على شذوذ آراء العلمانيين، ولو أخذنا الفكر الشيوعي العلماني وحده لو جدنا العجب إلى درجة أن العواطف لا وجود لها، والإنسان أصله صرصور!!! الخ ولو أنصف العلمانيون لوجدوا مئات الكتب الإسلامية التي تنتقد وتفصح التطرف والجهل الذي يحدث باسم الدين ولو أنصفوا لقالوا في كل العقائد والمبادئ متطرفون، ولو أنصفوا لقالوا الغالبية الساحقة والعظمى من الاتجاه الإسلامي والمسلمين معتدلون.

6- الأحاديث الموضوعة: حذر الرسول صلى الله عليه وسلم ممن ينسب له أحاديث لم يقلها . وألف علماءنا كتباً في الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة، وأفنى كثير منهم أعمارهم في هذا المجال كمالك والبخاري ومسلم والترمذي والألباني، ومع هذا نجد من العلمانيين من يستند في نقده واتهاماته للإسلام بأحاديث موضوعة، فهذا يتهم الإسلام بظلم المرأة، والآخر بالاستبداد، والثالث بالإرهاب الخ ولا أدري لماذا لا يأخذ هؤلاء ان كانوا صادقين أحاديث موضوعة تمجد المرأة مثل " خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" ويأخذ هؤلاء كذلك أقوال شاذة لرجال ينسبون زورا للإسلام ويعتبرونها دليلا قاطعا على تخلف المسلمين الفكري ، وقد وضع علماءنا في كتب كثيرة ضلال الفرق المخالفة والاجتهادات

الشاذة والخاصة سواء كانت عقائدية أو تشريعية أو عبادية . وهذا يثبت أن العلمانيين ليس هدفهم الحقيقة بل التشويه والجدل!!.

7- التخلف التكنولوجي : سبب تخلف المسلمين الصناعي والإداري والزراعي والتجاري الخ في القرنين التاسع عشر والعشرين يرجع لعوامل كثيرة منها فقر العرب، وتفرقهم السياسي، وتنازعهم كحكومات ومكائد الاستعمار والأعداء، ونشر الفتن بينهم، ومنها غياب الاستقرار في كثير من دولنا، وغياب الشركات الكبيرة والقطاع الخاص القوي والمراكز البحثية الحكومية، فعلى سبيل المثال أغلب دول الجزيرة العربية كانت تشكو وبشدة من نقص الماء، فكيف بالطعام، وكيف ستكون قادرة على بناء المختبرات والمصانع والمدارس ، وبالمقابل توفر لأمريكا الأنهار والأمن لعدة قرون، والوحدة السياسية والشعب الكبير والثروات الهائلة . فمن الطبيعي أن تكون أقوى بكثير من الدول العربية . فتخلف المسلمين لم يكن راجعا لعقائد إسلامية تمنعهم من اعمار الأرض، والاستفادة من التكنولوجيا، وتطويرها ، بل للظروف التي ذكرتها باختصار، وقد رأينا بأعيننا جيل الآباء واجتهادهم في عملهم ، وطموحهم وصبرهم ورغبتهم في التعلم والعلم ، واحترامهم الشديد للمعلمين، ولكن كثيرا منهم لم يستطيعوا الحصول على كثير مما يتمنون لأن إمكانياتهم كشعوب وحكومات محدودة جدا.

8- الماضي الأسود : ليس من الإنصاف أن نحسب على الإسلام والمسلمين اقتناعات كانت موجودة قبل قرنين أو ثلاثة كرفض تعليم المرأة، أو التعصب للمذاهب، أو التعامل الخاطئ مع غير المسلمين الخ فهذه أمور يرفضها الإسلام ، ومن بديهيات الحياة والتاريخ أن يحدث هناك سوء فهم للمبادئ من أهلها، وأن ينتمي لها من هو غير صادق في الاقتناع كالمنافقين حتى ولو كانت أسماؤهم محمد وعبدالله وعلي وبالتالي فلا يجوز إطلاقا نسبة ما في تاريخنا من ظلم أو جهل أو تعصب للإسلام، أو حتى للمسلمين الحقيقيين. فالواقع ليس دائما ترجمة صحيحة للفكر، وهذا ينطبق حتى على العقائد العلمانية، وتاريخ الشعوب غير الإسلامية. فالنقاش والنقد مقبولان إذا كان حول ما تدعو له المبادئ، ومع من ينتمون حقا لها. والأمثلة التي نشاهدها قديما وحديثا في المسلمين الحقيقيين هي أمثلة رائعة فعلا، فسيماهم في وجوههم، فهم في أسرهم، وحياتهم الوظيفية والسياسية من أفضل البشر، بل أفضلهم على الإطلاق،

فهم لا يكذبون، ولا ينافقون، ولا يزنون، ولا يسرقون، وهم أهل عدل ورحمة وصدقات وتواضع واجتهاد وحكمة.

9- الاستبداد: يصر بعض العلمانيين على اتهام الإسلام والدولة الإسلامية بتهم كثيرة غير صحيحة تم الرد عليها مرارا وتكرارا في كتب ومقالات وتلفاز وإذاعة وصحافة وأشرطة ، قالوا: الإسلام ضد الديمقراطية، وقلنا الشورى والديمقراطية متشابهتان لدرجة كبيرة جدا، وقالوا الدولة الإسلامية دولة دينية، وقلنا هي دولة مدنية والشعب هو الذي يحكمها وليس علماء الإسلام، ودور علماء الإسلام أشبه ما يكون بدور الخبراء الدستوريين . وقالوا: إن الإسلام يظلم المرأة ، وقلنا أن المرأة المسلمة هي أكثر نساء الأرض حقوقا واحتراما وكرامة ، وقالوا: الإسلام ضد الحرية، وقلنا الإسلام مع الحرية الحكيمة المسؤولة، وضد حرية الشتم والفساد والإلحاد . وقالوا الإسلام مع الأخذ بالأسباب الإيمانية فقط، وقلنا بل بالأخذ بالأسباب الإيمانية والمادية وشعارنا " اعقلها وتوكل على الله " وهذا هو أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم وطبقه في السلم والحرب . وعموما لماذا يصر البعض على تكرار هذه الاتهامات ، المسألة لم تعد جهلا منهم بقدر ما هو عناد وحقد وتشويه !!.

10- الفشل الدائم : نجح الإعلام الغربي في إقناع بعض شبابنا بأننا لم نعمل شيئا جيدا لا في حاضرنا ولا تاريخنا وهذا ظلم كبير، ويفتقد الموضوعية وأقول باختصار وبأعلى صوتي إن أعداء أمتنا يريدون منا أن نفقد الثقة في حكوماتنا وشعبونا حتى نياس ونستسلم لهم، وأعرف أن عندنا مهازل فكرية وسياسية وإدارية ولكن الصفحات المضيئة كثيرة، والإنجازات الطيبة كثيرة ، فالعمل الخيري الإسلامي الكويتي أنشأ آلاف المدارس والمستوصفات والمساجد في العالم ، ونجاح الثورة الجزائرية مفخرة كبيرة، وهناك انتصارات جزئية في حرب أكتوبر، وتم بناء عشرات الآلاف من المدارس خلال الخمسين سنة الماضية وانخفضت نسبة الأمية في السعودية من 95% إلى أقل من 10% خلال أربعين عاما و وراء هذا وغيره كثير من المخلصين والمجتهدين، فلا تيئسوا؛ وأعملوا فالمستقبل أفضل بكثير إذا اجتهدنا إن شاء الله.

11- الإسلام هو الحل : يتهم العلمانيون الإسلاميين بأنهم يعتبرون الرجوع للإسلام حلا لكل مشاكل الأفراد والوطن والأمة، وهذا الاتهام

صحيح إذا فهمناه بصورة صحيحة، فالأخذ بالإسلام معناه الأخذ بالعقائد الصحيحة والشورى والأخلاق الفاضلة والأحكام العادلة ونبذ العصبية والفرقة والطبقية ومحاربة النفاق والكذب والحسد والأنانية والبخل والانتقام ، ومعناه أيضا الأخذ بالعلوم التكنولوجية من صناعة وزراعة وطب الخ ومعناه الأخذ بالعقل والاجتهاد في معرفة حقائق الواقع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقائدية ، والإسلام لا يقتصر على العبادات والأخلاق فقد تعامل المسلمون قديما وحديثا مع الحياة من خلال المبادئ الإسلامية والقوانين والقرارات والصلاحيات الحكومية والسياسية والسيف والتسامح والصبر الخ وما نقوله تاريخ مكتوب ومعروف .

شبهات علمانية ظالمة (2)

كل العلمانيين والمتأثرين بالعلمانية يفهمون الإسلام بصورة خاطئة لم نعرفها نحن الذين نقرأ في الفكر الإسلامي منذ ثلاثين عاماً ، ولذلك هم يتهمونه باتهامات ليس لها أسس صحيحة، أو حتى منطقية ، وإليكم أمثلة من اتهاماتهم :

1- يقول الأمريكيون " لا تضع الكلمات في فمي " بمعنى لا تنسب لي قولاً لم أقله، ثم تبنى عليه انتقادك ، فهناك من يتهم الاتجاه الإسلامي بأنه يغضب إذا إنتقدت التاريخ " أو " يطالب بالدولة الدينية " أو " يرفض الديمقراطية " . ولو أخذنا تهمة رفض انتقاد التاريخ لوجدنا كتباً إسلامية كثيرة قديمة وحديثة تطرقت بالنقد والتحليل لتاريخ الدول الإسلامية، وما فيها من إيجابيات وسلبيات، ولوجدنا محاضرات في ذلك في كل الدول العربية، فمثل هذه التهمة ليس فيها من الموضوعية، ولا حتى واحد في المائة، ولكن الاتجاه الإسلامي يغضب إذا كانت هناك اتهامات كاذبة توجه لشخصيات إسلامية أثبتت إخلاصها وعلمها، والفرق ولا شك شاسع بين النقد الموضوعي، وبين الكذب والشتيم، والتشويه وليس الاتجاه الإسلامي وحده الذي يرفض ذلك ، بل كل أصحاب عقيدة أو مبدأ أو حتى حكومة أو حزب أو فرد يرفضون الاتهامات الباطلة، ومن المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر بأنه ستكون هناك فتن وظلم، ومن ذلك ما قاله لعمار بن ياسر رضي الله عنه "ستقتلك الفئة الباغية" والكتب التي تحدثت عن الفتنة بعد قتل عثمان رضي الله عنه وعن مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه وعن الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية متوفرة في المكتبات. ومرتبطة بهذا الموضوع أن من الظلم أن

يستشهد العلماني بأقوال أو مواقف أو اجتهادات قديمة أو حديثة يرفضها الإسلام ويعارضها العلماء، ثم بناء عليها يتهم الإسلام بالتطرف، أو الجمود، أو الجهل، أو غير ذلك، فمن الطبيعي أن تكون هناك أقوال ومواقف شاذة في أمة فيها مئات الملايين من البشر لا يستطيع أحد أن يمنعهم من الكلام والكتابة، أو القيام بأعمال ومواقف منحرفة، فمن الظلم تحميل الإسلام الصحيح المعتدل الواعي مسئولية ما قاله هذا أو فعله ذلك.

2- صحيح أن الإسلام يرفض الثورة على الحاكم المسلم الظالم خوفاً من الفتنة ولكن هذا الأمر ليس على إطلاقه، وقد جرب بعض المسلمين الثورة على الخلافة الأموية والعباسية فزاد الظلم والانحرافات، وهذا أضعف المسلمين والدولة الإسلامية. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الانحرافات موجودة في كل حكومة، وأن المصالح والعصبيات والجهلاء في كل شعب، فإن تشجيع التصادم بين الشعب والحكومة سيؤدي إلى الضعف والفسل والفقر، ولا شك في أن الإسلام دين واقعي ولا يتوقع المثالية من حكومة أو حزب أو جماعة أو فرد، فالواقعية شيء والتخاذل والاستسلام شيء آخر، ولو ثار المسلمون على كل حاكم ظالم لقال العلمانيون : انظروا إلى المسلمين، إنهم إرهابيون يحبون القتل والدماء. ومن المعروف في عالمنا العربي أن العلمانيين والمتأثرين بالعلمانية في العالم العربي لم يقوموا بثورات مسلحة خلال الثلاثين سنة الماضية، فلماذا لا يتهمون أنفسهم بأنهم يرضون بالظلم والاستبداد.

3- يتهم الإسلام بأنه يناقض الديمقراطية، وهذا الاتهام ليس صحيحاً، فمن المعروف أن الشورى واجبة، ومن المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل حاكم مسلم عادل يشاور المسلمين، واختلف فقهاؤنا هل الشوري ملزمة للحاكم أم لا؟ ومن قال بأنها ملزمة للحاكم اقترب كثيراً من الديمقراطية الغربية، وعموماً واقع كثير من الدول الإسلامية الملتزمة بالإسلام ليس سيئاً في جانب الشورى حتى ولو حدث استبداد في فترات من تاريخنا. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الديمقراطية الغربية ليست الصورة الأفضل للشورى لما فيها من سلبيات جعلت " تشرشل " يصفها بأنها أحسن الأنظمة السيئة. فإن محاكمة الإسلام بناء على المقاييس الغربية للديمقراطية خطأ، كما أن محاكمته بناء على ضعف المسلمين وعدم التزامهم بالشورى خطأ.

4- يظن بعض العلمانيين أن الفكر الإسلامي يواجه عجزاً في بناء الدولة الإسلامية الحديثة، وأن من الصعب تقديم نظرية إسلامية سياسية واقعية، وأن المسلمين بحاجة لمن يشرح لهم أساسيات السياسة والعدل والحكمة..... الخ وقد يكون هذا صحيحاً لو لم يبين المسلمون عدة دول عظمى على مدى تاريخنا، وقد يكون صحيحاً لو لم توجد دول إسلامية كالسعودية وإيران وماليزيا والسودان وغيرهم ليس لديها أزمة فكرية، لا في داخلها ولا في تعاملها مع العالم. أما من الناحية النظرية فالفكر الإسلامي السياسي ليس بحاجة إلى تقديم نظرية سياسية جديدة لأن مبادئه لم يثبت فشلها حتى يغيرها، أما إذا كان المقصود اجتهادات جديدة تناسب تعقد الحياة في عصرنا هذا، وتغير بعض الظروف والأحوال فهذا شيء مطلوب، وهذا هو ما يحصل في أغلب دولنا الإسلامية، وهو يحدث في اجتهادات العلماء والجماعات الإسلامية.

5- عجزت العقول العلمانية العربية والأجنبية عن إيجاد تفسير لعودة الناس للتمسك بالإسلام، وبالتالي تفسير قوة الاتجاه الإسلامي من إندونيسيا حتى المغرب، في حين أن العلمانية كانت وستبقى ضعيفة مع دعمها من أمريكا وأوروبا، قالوا: الإسلام ينتشر في بيئات الفقر والجهل، ونقول أن انتشاره واضح في الدول الخليجية وماليزيا وحتى أوروبا وأمريكا وغير ذلك من الدول. فالشعب الكويتي هو أكثر الشعوب الإسلامية غنى وترفاً، ومع هذا فاتحاد الطلبة يسيطر عليه الاتجاه الإسلامي منذ أكثر من عشرين عاماً بانتخابات حرة ونزيهة. وسيطر الإسلاميون على نقابات المحامين والأطباء وغيرهم في مصر وغيرها. ولن يستطيع العلمانيون قراءة الواقع بصورة صحيحة، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى أعمى بصائرهم قال تعالى: (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور). (46) سورة الحج

6- يظن العلمانيون إنك إن لم تقتنع بالعلمانية فأنت ضد الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والتفكير الإبداعي والحوار والسلام. وهذا من أغرب وأجهل التهم فإذا لم نعتبر الشذوذ الجنسي من الحرية، فإن هذا لا يعني أننا ضد الحرية بل مع الحرية النظيفة. ونحن إذا عارضنا بعض ما يسمى حقوق الإنسان بالمفاهيم العلمانية، فلسنا ضد حقوق الإنسان ولو نظرنا للأمر من زاوية أخرى لوجدنا العلمانية الرأسمالية تحتكر معاني الحرية والمساواة وحقوق الإنسان،..... الخ

وتريد أن تجبر كل أصحاب العقائد الدينية والعلمانية الأخرى على تطبيقها بالصورة العلمانية، وهذا في حد ذاته ضد حرية الإنسان والدول. هذا ما تفعله أمريكا وأوروبا لأنها دول غنية، وقوية، فلا صوت يعلو فوق صوتها حتى ولو كان صوت الأنبياء والعقل والحرية الحقيقية.

7- لا نستغرب أن يتهم الإسلام بتهم كثيرة كاذبة فأحياناً هو مثالي لا يصلح للتطبيق (مع أنه مطبق في حياة كل مسلم ملتزم وكل دولة ملتزمة) وأحياناً توجد به اختلافات (والاختلافات الاجتهادية دليل مرونة وتنوع وحرية رأي)... الخ وإذا فخر المسلمون بإنجازات عظيمة بتاريخهم اتهموا بأنهم يريدون أن يعيشوا في الماضي، ويتركوا الحاضر والمستقبل مع أن هذا أمر تفعله كل شعوب الأرض، ولو سكت المسلمون، ولم يتكلموا عن تاريخهم لأتهمهم العلمانيون بأنهم ليست لهم إنجازات طيبة... المهم أن اتهامات العلمانيين لم ولن تنتهي وهي نابعة من الجهل أو الحقد أو الغباء!!

الأقتاعات العلمانية السرية والتاريخ

هناك فكر علماني سري يتشكل في الظلام من خلال تداول معلومات وشبهات واتهامات خاطئة، فهذا يزعم أن هناك تعارض بين آيات القرآن الكريم، والثاني يشكك بالأحاديث الصحيحة، أو طرق جمعها، والثالث يعتبر تاريخنا كتبه مرتزقة وجهلاء، والرابع يعتقد أن المسلمين لا يفكرون بعقولهم، والخامس يظن أن المسلمين مخدوعون ولا يعرفون دينهم، والسادس يقول عن الجماعات الإسلامية أشد مما قاله مالك في الخمر، والسابع يعتقد أننا كشعوب وأمة لم نحقق أي إنجازات طيبة، وإذا سلطنا الأضواء على فهم العلمانيين لتاريخنا لوجدنا الجهل مجسداً في فهمهم لحقائق الحياة والتاريخ وإليكم الأدلة :

1- "المراجع الانتقائية" يختار العلمانيون مراجع وكتب وأقوال انتقائية مما كتب عن تاريخنا بالحق وبالباطل، ويرفضون ما خالفها من مراجع وكتب وأقوال، وهذا ليس من الأنصاف، والعلمية، فلماذا يصدقون السلبيات، ويرفضون تصديق الإيجابيات، فكل ما ذكر من سلبيات سواء صحيحة أو خاطئة يعتبرونها حقاً وصواباً وما ذكر من إيجابيات حتى ولو كانت واضحة جداً فهي باطل وخطأ أو مبالغ فيها، ولو أخذنا تاريخ الاتحاد السوفيتي وهو تاريخ حديث من مصادر

شيوعية لوجدناه كله إيجابيات، ولو أخذناه من مصادر غربية لوجدنا أغلبه سلبيات وقد شاهدنا في القرن العشرين وحتى يومنا هذا اختلافات كبيرة في تقييم إيجابيات وسلبيات ثورة 23 يوليو المصرية، فمن أحبوا عبد الناصر اعتبروه بطلاً قومياً، ومن كرهوه اعتبروه مجرماً كبيراً، والغريب أننا نادراً ما نجد من يكتب بموضوعية، ليس في التاريخ وحده بل في أمور كثيرة في حياتنا. والموضوعية تتطلب أن نعتمد على مصادر صحيحة حتى نعرف الحقائق.

2- " التخصص بالتاريخ " ليس من المعروف عن العلمانيين أنهم متخصصون في التاريخ حتى يكونوا واثقين جداً من أن تاريخنا الإسلامي أسود، ومع هذا عندهم ثقة كبيرة في " علمهم " الذي لم يدرسوه فالعلمانيون أهل جدل ونقاشات فلسفية وبيزنطية، وأغلبهم أهل سياسة واقتصاد، وبالتالي فمن باب احترام العلم عليهم أن يتركوا العلم لأهله، ولا يندفعوا في توجيه اتهامات تاريخية، لأن دافعهم الوحيد سيكون هو تحقيق " انتصارات " بأي وسيلة، وليس خدمة العلم والحقائق، ونحن قوم نريد الوصول للحقائق، ولا وقت عندنا لمناقشة من يريد أن يجادل بغير علم، وكثيراً ما يناقش العلمانيين مسلمين ممن ليس لديهم علم بالتاريخ فالمسلم قد يكون طبيباً أو مهندساً، وبالتالي فثقافته التاريخية محدودة، ويظن العلماني أنه " انتصر " في نقاشه والمفروض أن يناقش المتخصصين في التاريخ من المسلمين وغيرهم.

3- " العلمانية والمصارحة " : لا يوجد ما يمنع الحوار العلني وتوجيه الأسئلة الصريحة لأهل الاختصاص في وجود الفضائيات والإذاعات والجامعات والكتب والتلفونات والرسائل، وبالإمكان عقد ندوات ومحاضرات ليس فقط لمناقشة تاريخنا بل لكثير من الاتهامات والشبهات التي ذكرتها أعلاه، فما الذي يمنع أن تتصل بالهاتف بعشر علماء مسلمين أو متخصصين بالتاريخ، أو غيرهم وتسالهم، ومن يريد أن يعرف الحقائق فعليه أن يتعب ويسأل ويقرأ ويفكر. ولكن العلمانيين لا يفعلون ذلك، بل يتبادلون اعتقاداتهم الخاطئة فيما بينهم في سرية مما يجعلهم يبقون على جهلهم ولا يدخل الهواء النظيف لحجراتهم.

4- "اتهام النوايا": يظن بعض العلمانيين أو المتأثرين بالعلمانية أن تاريخنا الإسلامي كتبه رجال موالون للدولة العباسية أو الأموية، ونقول هذا ليس صحيحاً فأين بقية الأمة وما فيها من علماء ورجال؟ وأين من يخالفون هذه الحكومات وهم كثيرون، وهذا وجدناه في أشعار وقصص كثيرة، فكيف وصلت إلينا لو كان هناك كتب محددة للتاريخ تعكس وجهة النظر الحكومية، بل لقد وصلنا الشعر الجاهلي وهو أقدم، ووصلنا تاريخ اليونانيين، وهو قديم فكيف يضع تاريخنا بعد أن أصبحنا أمة تقرأ وتكتب وتقود العالم؟ وهناك كثير من العلماء المخلصين كتبوا التاريخ بأمانة. ومن الظلم اتهامهم بدون أدلة بأنهم كتبوا التاريخ بصورة كاذبة حتى يرضوا حاكماً أو مستولاً، ونحن نتكلم عن علماء كبار مثل الطبري وابن كثير وغيرهم. وكانت الدولة العباسية على سبيل المثال دولة ثقافة وحوار يتناقش ويختلف فيها المسلمون وغيرهم في عقائدهم وانتماءاتهم وناقشوا أيضاً الفكر الفلسفي اليوناني فكيف بالتاريخ.

5- "أولويات العلم": اهتم المسلمون كثيراً جداً بالتدقيق والبحث في ما يتعلق بالإسلام من أحاديث وسيرة ورجال وأحداث في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلوا جهوداً عظيمة جداً في جمع الأحاديث، وبيان الصحيح والضعيف والموضوع، ولكن لم يهتموا كثيراً بالتاريخ القديم والحديث للدول الإسلامية، وهذا شيء طبيعي لأن هناك أولويات، وهذا لا يعني أنهم يجهلون أساسيات تاريخهم، ولا يعني أن التاريخ ليس مهماً وهم فعلوا ذلك لأن المهم معرفة الإسلام عقائد وشريعة وأخلاقاً، فهذا هو المنهج الذي نحتاجه في حياتنا، أما تاريخ هذه الدولة أو تلك أو تاريخ هذا الفرد أو ذاك فهو ليس مهماً لدرجة كبيرة قال تعالى: (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) (134) سورة البقرة.

6- "النظرية والتطبيق": اتهام الدولة العباسية أو العثمانية أو غيرها أنها فعلت كذا وكذا من السلبات قد يكون بعضها صحيحاً ولا ننكره. وهذا لا يصلح لاتهام الإسلام بأنه دين خاطئ، وليس دليلاً أبداً على أن الإسلام لا يصلح لأن يكون ديناً ودولة، فالانحرافات موجودة في كل الدول الإسلامية والعلمانية قديماً وحديثاً، ولم يقل أحد أن الدول الإسلامية دول مثالية، فكلما زاد الإيمان زاد العدل والشعوب الإسلامية حالياً تتفاوت في إسلامها، بل إن هناك بعض المسلمين ليسوا مسلمين! فهم رأسماليين أو شيوعيين مع أن أسماءهم أحمد

ومحمد وعمر وعلي، وعلينا أن نفهم العلاقة بين المبادئ وبين الدول والأفراد بصورة صحيحة، فالالتزام بالعقيدة الصحيحة يعطي تطبيقاً صحيحاً، أما عدم الالتزام فلا يحسب عليها.

7- "الواقعية": من أهم الأمور التي يجب أن نعرفها أن القراءة الموضوعية لتاريخ الشعوب والدول الغير إسلامية سيبين بوضوح أن تاريخ المسلمين أفضل كثيراً من تاريخ أوروبا وروسيا والصين، فليدهم كثير من الانحرافات والخرافات والجهل والظلم والسخافات في العقائد والأحكام والشخصيات والأحداث والأهداف والأخلاق، فإيجابيات الدولة العثمانية مثلاً كثيرة جداً مع ما فيها من انحرافات قال د. فؤاد زكريا: "أما التجارب التاريخية، فلم تكن إلا سلسلة طويلة من الفشل. إذ كان الاستبداد هو القاعدة، والظلم هو أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والعدل والإحسان والشورى وغيرها من مبادئ الشريعة لا تعدو أن تكون كلاماً يقال لتبرير أفعال حاكم يتجاهل كل ما له صلة بهذه المبادئ السامية" (1)

وقال د. محمد عمارة: "أنا أقول ليس هذا تاريخنا، وأنا أزعم أن د. فرج فودة وأشباهه يستمدون التاريخ من ألف ليلة وليلة" وقال: "ليس هذا تاريخنا، صحيح أنه منذ الدولة الأموية حدث تراجع واختراق في علاقة الحاكم بالمحكوم، وفي العدالة الاجتماعية، لكن تأملوا معي كل العلوم الإسلامية شرعية ومدنية بنيت بعد الخلافة الراشدة، كل تيارات الفكر الإسلامي لم تنشأ إلا بعد الخلافة الراشدة... كل ما تتلمذت عليه أوروبا في الغرب واستخدمته في النهضة لم ينشأ إلا بعد الخلافة الراشدة، من الذي يقول أن تاريخ هذه الأمة كان ظلاماً؟ العلماء، المفكرون، الفتوحات، نشر الإسلام، نشر العربية، كل هذا الفخر الذي نتيه به نشأ بعد الخلافة الراشدة" (2)

8- "نفق الزمن": يتعامل البعض من العلمانيين وغيرهم كأن كل أحداث وأسرار التاريخ والأفراد واضحة إلى درجة معرفة ماذا قال الحاكم للوزير أو غير ذلك كأنهم جالسون معهم، ومن له معرفة أولية بالتاريخ وبالاتصالات وبالحياة يعلم أن هذا الفهم خاطئ جداً، وفي المقابل نجد البعض يشكك حتى في الخطوط العريضة للتاريخ والأحداث. فالفريق الأول يجعل كل شيء معروف ومفصل وموثق وخاصة الأخبار السيئة والسلبيات، والفريق الثاني يشكك في إيجابيات كبيرة ومشهورة في تاريخنا، وهذا التناقض يثبت أن

المسألة في حقيقتها هي صراع سياسي وفكري وليس نقاشا علميا وموضوعيا.

(1) ص 169 الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه د.يوسف القرضاوي.

(2) ص 192 المواجهة بين الإسلام والعلمانية د.محمد صلاح الصاوي.

ما هي الحرية الحقيقية؟

ما من شك أن الحرية والعدل والمساواة كلمات جذابة ، وأهداف نبيلة يجب أن نسعى لتحقيقها، والمشكلة التي واجهت البشر قديما وحديثا هو تحديد المعنى الصحيح لهذه الكلمات! فهناك حرية رأسمالية، وحرية شيوعية، وحرية اشتراكية، وحرية نازية، وحرية مسيحية، وحرية إسلامية الخ فأياها هي الحرية الصحيحة؟ ولنعمل مقارنة بين الحرية الإسلامية والحرية الرأسمالية سنجد أن الغرب يعتبر أن الزنا والقمار جزء من الحرية الشخصية للفرد، ويعتبر من الحرية أن يتصرف الإنسان في ماله كما يشاء حتى لو صرفه على شرب الخمر، أو شراء السيارات الغالية الثمن، أو غير ذلك في حين أن الإسلام لا يعتبر هذه الأمور جزءا من الحرية، ويعاقب عليها قانونيا، أو فكريا فكل إنسان عاقل مقتنع بأن الخمر والزنا والقمار لها آثار سيئة كثيرة ومعروفة، فكيف تكون جزءا من الحرية، وهل تأتي الحرية بالشر والمآسي؟ وبدليل أن العقل الأمريكي حرم الخمر في بداية القرن العشرين، ثم تراجع بعد ذلك، وألغى تحريمه، وبالتأكيد أن الغرب لم يتبع العقل الواعي بل اتبع الشهوات والأهواء. ومحاولة تحديد ماهي الحرية الصحيحة بدون تحديد، أو لا، ما هي العقائد والمبادئ الصحيحة خطأ ارتكبه كثير من العلمانيين وممن تأثروا بالعلمانية ، لأن الصحيح هو تحديد ماهي العقائد والمبادئ الصحيحة بصورة شاملة تبدأ من العقائد الكبرى المتعلقة بوجود الله سبحانه وتعالى، وصدق الأنبياء، والمبادئ الأساسية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وسيكون العدل هو الالتزام بهذه العقائد والمبادئ، وهو في نفس الوقت الحق والصواب، وما ينحرف عن هذه المبادئ هو الظلم والباطل والخطأ، وكذلك الأمر بالنسبة للحرية فما يتعارض مع المبادئ الصحيحة ليس حرية، فإذا كان الزنا يتعارض مع هذه المبادئ فهو ليس حرية، بل

انحراف وفساد وما نقوله لا يتعارض مع وجود تشابه في جوانب كثيرة بين الحرية الإسلامية، والحرية الرأسمالية، لعل من أهمها أن للشعوب الحق في اختيار الحكام والحكومات والإنسان له الحرية في التملك والتجارة والكتابة..... الخ كما أن الحرية العقائدية في الإسلام كبيرة، فبإمكان الإنسان أن يبقى على عقيدته المخالفة للإسلام، ولكن لا يحق للمسلم أن يغير عقيدته. ودول العالم في أغلبها تعتبر صفة الخيانة للوطن جريمة عقوبتها القتل لأنه خرج من انتمائه لمصالح الوطن لانتماء أعدائه، فإذا كان الانتقال من مبدأ إلى آخر أو من موقف إلى آخر يعتبر خيانة أو جريمة يجب أن يعاقب فاعلها، ألا يحق أن نعتبر من ينتقل من معسكر الإيمان إلى معسكر الكفر خيانة عظمى لأن هذا انتقال من عبادة الله الواحد القهار إلى معسكر الشيطان والأهواء والشهوات، وحق الله سبحانه وتعالى أهم وأعظم من حق الوطن والشعب والقبيلة والعائلة والأسرة.

وإذا كنا نستطيع أن نحدد بصورة دقيقة مساحة وحجم ونوع الحرية في الإسلام من خلال ما فيه من عقائد وأحكام وأخلاق فإن معاني الحرية في الفكر العلماني بمدارسه الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية وغيرها هي معاني متناقضة، ومختلفة في أنواعها ومساحتها، قال الأستاذ أديب صعب: " وقد استفاض فلاسفة الأخلاق في معالجة مسألة الحرية التي تشكل أحد موضوعاتهم الرئيسية، وملأوا الصفحات والكتب الكثيرة في هذا المجال، وتوزعوا مدارس حيال هذه المسألة فمنهم من سلم بحرية الإنسان التامة لكي يؤدي ما هو واجبه، أو لا يؤديه مما يستتبع مسئوليته ومنهم من حد الحرية والمسئولية ببعض الشروط، ومنهم من نفى الحرية والمسئولية نفياً تاماً....." (1).

(1) ص 269 المقدمة في فلسفة الدين الأستاذ أديب صعب .

وعجزت العقول العلمانية عن إثبات الشرعية العقلية لهذا المعنى أو ذاك، واختلفوا حول حجم حرية الصحافة، وحرية وجود الأحزاب السياسية، واختلفوا حول حدود حرية الشباب، والوالدين، والأطفال، فبعضهم يعتبر ضرب الأب أو الأم للطفل اعتداءً على حرية الطفل وحتى لو اجتمع العلمانيون وحاولوا أن يتفوقوا عقلياً على تعاريف واضحة وشاملة للحرية فلن ينجحوا أبداً، وإذا حاولوا أن يصلوا لها من خلال التصويت على مستوى الشعب فهذا ليس حلاً علمياً وعقلياً، بل

هو حل سياسي، لأن كل شعب سيختار المعاني التي يقتنع فيها، وهذا يعني أن الحرية ستختلف معانيها من شعب لآخر. وستبقى المعاني الصحيحة للحرية مجهولة ويعني ذلك أننا سنسعى وراء شئ غامض، وسراب لا نعرفه إلا اسمه حتى ولو عرفنا بعض ملامحه مما لا تختلف عليها العقول العاقلة، ونقول لكل المفكرين والمنادين بالإصلاح والرقي البشري لا تتعاملوا مع الواقع قبل أن تعرفوا ما هي الحرية الصحيحة؟ وما هو العدل؟ فالنوايا الصادقة لا تكفي للإصلاح، وقد يكون من الغريب أن التعمق في قضية الحرية سيجعلنا نقتنع أن الإنسان مقيد بقيود متنوعة و واجبات كثيرة، فحرية القول ليست على إطلاقها، فممنوع اتهام الناس، أو السخرية منهم، أو غيبتهم، أو شتمهم، أو استخدام ألفاظ بذيئة، وأنت لست حرا في وقتك، فهناك واجبات كثيرة نحو والديك وأهلك وأبنائك و وطنك وأقاربك..... الخ وهناك وقت للعبادة والعمل..... الخ وننبه هنا إلى قضية هامة جدا وهي أن البعض يفهم الحرية بأن معناها التحرر من المبادئ والأخلاق، ونقول التحرر الحقيقي هو التحرر من الشهوات، وحب المناصب، وعشق المال، والحسد، والحقد..... الخ . ويقصد أغلب العلمانيين بالحرية حرية الفساد الأخلاقي، وحرية التهجم على الدين وحرية الزندقة والكفر، وحرية إثارة الغرائز الجنسية بالروايات والأفلام : قال لي أحد المتأثرين بالعلمانية : من حق الإنسان أن يمارس الجنس إذا كان عمره يزيد عن واحد وعشرين عاما. فقلت له : هل تقبل هذا من ابنتك ؟ قال : لا سأقاطعها. والتناقض هنا مادمت تؤمن أن هذا حرية فلماذا تغضب من ابنتك إذا كانت ما تفعله حرية ؟ إنه هنا يناقض مبادئه ويرفضها... ويريد أن تكون ابنته عفيفة وزوجة محترمة..... وهذا ما يريده كل أب وأخ، وما نحبه لأنفسنا يجب أن نحبه للآخرين والمبادئ الصحيحة "الإسلامية" هي التي تحقق ذلك والحرية الصحيحة (الإسلامية) لا نخجل منها ، ولا نكيل فيها بمكيالين، وبعض العلمانيين يقبلون العلاقات الجنسية قبل الزواج، ويرفضونها بعد الزواج ، فإذا كان الجنس خارج الزواج فساد فليرفضوه سواء كانوا عزابا أو متزوجين، وإذا كان جزء من الحرية فليقبلوه قبل الزواج وبعده، وهناك من يقول أن من حرية، الإنسان أن يشاهد الأفلام الجنسية ما دام في بيته، أما إذا جعل هذا العمل تجارة أو قضية عامة فهو مرفوض وضد الحرية وأقول إذا كانت المشاهدة جزء من حرية الإنسان فلتكن حق يمارسه من يريد داخل المنزل أو خارجه، وإذا كانت باطلا فلنرفضها في كلا الحالتين. وهناك

من قال : أعطوا الإنسان حريته ودعه يختار ؟ وأفتح الأبواب للناس ودعهم يختارون، ولا تتحكموا في حياتهم وأمورهم؟ ومثل هذه الأقوال يرد عليها بان الله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان كامل الحرية حتى في الأمور العقائدية، فبإمكان الإنسان أن يكفر بالله سبحانه وتعالى ويكون زنديقا وملحدا وبإمكانه أن يكون مسلما وصالحا قال تعالى : " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (29) سورة الكهف ، فلا أحد يستطيع أن يفرض على الإنسان أن يؤمن بالله، أو أن يصلي، أو أن يكون صادقا في كلامه. ولكن إذا كنا نريد أن نكون مسلمين فحدود الحرية معروفة، وليس منها فتح أبواب الفساد الأخلاقي والزندقة والأدب الرخيص والأفلام الهابطة، أما إذا كنا كشعب نريد أن نكفر ونتبع غير الإسلام فافتحوا الأبواب لما شئتم ، وافعلوا ما تشاءون، فليس بعد الكفر ذنب ولا يوجد " حل وسط " كأن نكون مسلمين كأفراد وكفار كمجتمع أي نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ولا يوجد حل وسط في الإيمان، ولا يجوز أن يعتقد أو يظن المسلم أنه أرحم أو أعدل أو أعلم من الله سبحانه وتعالى، ولهذا سيضع قوانين للحرية أكثر تطورا !! . ومن الأمور الهامة في هذا الموضوع أن موضوع فرض عقائد وقوانين هو شئ موجود في كل الدول، فالولايات المتحدة قد تمنعك من الدخول لها، وهذا ضد حريتك في التنقل في أرض الله، وهي تفرض عليك أن تعيش قوانينها في التجارة والعقوبات والسياسة والضرائب وأعلامها . ولم نغلق كمسلمين الأبواب على حريات الناس، وما يفيدهم، ولكن أغلقنا أبواب الفساد والشر، فكل أب عاقل وليس بالضرورة أن يكون مسلما يمنع أبناءه من الخمر والزنا والأفلام الجنسية الخ ويجبرهم على الدراسة ولا نعتبر ذلك تحطيما لحريتهم أو من الاستبداد والظلم.

أوهام التسامح العلماني

من طبيعة الفكر العلماني النقد وتوجيه الاتهامات للخصوم بالتعصب والرجعية والتخلف الخ بل إن من أساسياته انتقاد وتسفيه المناهج الفكرية العلمانية نفسها لأنه فكر قائم على آراء الفلاسفة وجدلهم، وسناخذ تهمة واحدة يتهم فيها العلمانيون المسلمين بأنهم ضد التسامح، وأن العلمانيين هم أهل التسامح ونقول هذا ليس بصحيح وإليكم الأدلة :-

1- انقسم العلمانيون إلى رأسماليين واشتراكيين وشيوعيين ونازيين وغيرهم، وهذه كلها أفكار صنعتها عقول الفلاسفة، وأنتجت المعسكر الغربي، والمعسكر الشرقي، والمعسكر النازي وغيرهم، وهؤلاء تعصبوا لمبادئهم، وأنتجوا في القرن العشرين وحده عشرات الحروب من بينها حربين عالميتين قتل فيهما أكثر من أربعين مليون من البشر، وهذا الرقم أضعاف ما قتله الحروب باسم الأديان السماوية بالحق وبالباطل، فأين التسامح العلماني؟ وما ذكرته حقائق واقعية وليس آراء شخصية، ولنتذكر أن أغلب من قتلوا في الحروب العلمانية هم المدنيون من أطفال ونساء ورجال، فحروبهم ليست بلا تسامح فقط بل بلا أخلاق والحروب الرأسمالية الاستعمارية حدثت بين الدول الأوروبية العلمانية من القرن السادس عشر وحتى التاسع عشر، وحدثت بين المدارس الشيوعية العلمانية، واتهاماتهم كانت الخيانة للثورة، والتأمر على النظام، والعمالة للإمبريالية..... الخ. ونذكر بأن أهداف الحروب الدينية الصادقة نشر الرسالة السماوية، وتطبيق شريعة الله، أما أهداف الحروب العلمانية فهو تحقيق المصالح المادية، وإشباع التعصب العرقي.

2- الفكر العلماني ليس فكراً محدد المعالم يحدد ماهي الحرية والعدل والمساواة والتسامح، بل هو فكر قائم على الاختلاف حول معاني هذه الأمور فما يراه هذا العلماني عدلاً يراه الآخر ظلماً وما يراه الثالث حرية يراه الرابع عبودية، والخامس فوضى، وما يراه السادس تسامحاً يراه السابع سذاجة..... الخ والاختلاف يؤدي إلى الصراعات والكراهية وعدم التسامح بين العلمانيين، فما بالك فيما بينهم وبين غيرهم من أهل الأديان السماوية خاصة وأن العلمانية قائمة على تسفيه الدين، واتهامه بأنه سبب التخلف والتعصب، وسيكون بالتالي المتمسكون بالأديان السماوية متهمين بأنهم متعصبون ومتخلفون ومتطرفون، وهذا الاقتناع نراه ينعكس في التعامل معهم على المستوى السياسي والشخصي، فهي سجنات الدين في المساجد والكنائس وهي حاربت الأحزاب الإسلامية، ولم تعطها حتى حق الاحتكام إلى الانتخابات والتصويت الشعبي، فهي مرفوضة حتى ولو حصلت الأغلبية الشعبية الساحقة، ومع هذا يقولون الحكم للشعب، ووصل عدم التسامح في فرنسا إلى منع طالبة مسلمة من التعليم لأنها ترتدي الحجاب، أما تركيا العلمانية فحدث ولا حرج، ووصل التدخل حتى إلى جعل الأذان بالتركية، والى طرد نائبة لأنها متحجة، والى منع المدارس

الإسلامية، والى التحالف مع إسرائيل اليهودية مع أن الشعب التركي شعب مسلم ، ولكنه يحكم بالقوة العسكرية، وكل هذا ينشئ بيئة بعيدة عن التسامح وقد وضعت العلمانية تصنيفات جديدة للبشر كما وجدنا في المعسكر الغربي الرأسمالي والمعسكر الشرقي الاشتراكي، ووجدنا عالم "حر" وعالم "غير حر، ووجدنا تقدمي وثوري ومحافظ ويمين ويسار ورجعي وإمبريالي وكلها تقسيمات علمانية، فهي هربت من التعصب الديني المرفوض دينيا لتقع في حفر الجهل والتعصب العلماني!!!.

3- أمريكا العلمانية لم تكن يوما نموذجا صالحا للتسامح مع الهنود الحمر، ولا مع الزوج، بل قتلت واستعبدت واضطهدت! وأين التسامح في تعامل الأمريكيين مع قادة الأمريكيين الأفارقة مثل مارتن لوثر كينج والزعيم المسلم مالكوم اكس، لقد تم السماح باغتياهم، وما أخذه الأفارقة من حقوق انتزعه انتزاعا، وليس نتيجة التسامح العلماني الأمريكي، وأين التسامح الأمريكي في إلقاء قنبلتين نوويتين على عشرات الآلاف من المدنيين اليابانيين في الحرب العالمية الثانية ليقتلوا الأطفال والنساء مع أن أمريكا لم تكن مهددة في عقر دارها، وكانت معركة عادلة لحرب بأسلحة تقليدية، وأين التسامح في الذهاب إلى فيتنام ومحاربة الشعب الفيتنامي بقنابل النابالم ؟ وأين التسامح في تدبير الانقلابات في أمريكا الجنوبية ضد إرادة شعوبها ؟ فهي لم تتسامح مع من يطالبون بالاستقلال، وحرية تقرير المصير، فما بالك بغيرهم ؟! ، والتسامح الأمريكي موجود مع إسرائيل ووقوفها في أكثر من عشرين فيتو تؤيدها، وتمنع معاقبتها من دول العالم، والتسامح موجود مع حكام ديكتاتورين في أفريقيا وآسيا لأنهم يحققون مصالحها، ولا يهمها ما عملوا من جرائم وسرقات الخ . وإذا كانت أمريكا هي الدولة رقم واحد خلال الخمسين سنة الماضية، فكنا يعلم أن السياسة العالمية قائمة على المصالح والقوة كما في أغلب فترات التاريخ، وليست قائمة إطلاقا على المبادئ أو على جزئية منها اسمها التسامح، وكلنا شاهدنا كيف تعاملت أمريكا بعد أحداث 11 سبتمبر مع باكستان، وهي دولة ذات سيادة حيث قالت لها إما معي أو ضدي في حربي مع أفغانستان، فهل هذا تسامح أو حتى التزام ببديهيات القانون الدولي والأعراف الإنسانية؟ وهذا كلام معلن وليس تهديدات سرية، كما أن تسامحها كان مفقودا في قصف الطائرات للأفغان العرب الأسرى في سجن مزار الشريف حيث قتل بعضهم وهم مقيدون، فلا

تحقيق بالأمر، بل تعميم إعلامي والتسامح الأمريكي بدأ فوراً بعد أحداث 11 سبتمبر بإنشاء محاكم عسكرية للمتهمين، وواجه كثير من العرب من المقيمين بأمريكا " ألوانا " من التسامح الأمريكي في اضطهادهم ومقاطعتهم بلا أي تهمة . ولم يعد من حرية الرأي أن تسمح أمريكا ولو بصوت واحد يؤيد أسامة بن لادن داخل أمريكا فأين حرية الرأي ؟ وضرب الجنود الأمريكيان جنديا برتغاليا في قاعدة لحلف الأطلسي لأنه أيد بن لادن إن حرية الرأي هي في تشويه الدين، واتهام الله سبحانه وتعالى، أما مصالح أمريكا واقتناعاتها فلا تقبل أن ينتقدها أحد !!.

4- لم يظهر العلمانيون العرب أو المتأثرون بالعلمانية أي نوع من التسامح مع الآخرين، ونحن نتكلم عن واقع امتد خمسين عاماً حيث شاهدنا مواقف دموية وعنيفة فيما بينهم، وكذلك في تعاملهم مع الإسلاميين وقرءوا التاريخ القريب فهو كتاب كبير مفتوح يثبت التصفيات والتأمر والسجن والتعذيب والطرده والنفي والشك وسوء الظن، فكل حاكم لا يحتكم للإسلام فهو علماني وكل حكومة لا تحتكم للإسلام فهي علمانية ، وقد ذقت بعض شعوبنا مرارة العلمانية والعلمانيين وعانت من كذب شعاراتهم وفشلهم في تحقيقها، فلا حرية رأي، ولا انتخابات نزيهة، ولا احتكام إلى قانون بل لأنظمة سرية وديكتاتورية وإرهابية، وموقفهم من الدين كان في الغالب سيئاً جداً، وفي أحسن الأحوال يتم تجاهله، ويكفي أن بعض شعوبنا أخذت تترحم على أيام الاستعمار البريطاني والفرنسي بعدما رأت ما فعله العلمانيون والمتأثرون بالعلمانية، وحاربوا حتى العمل الخيري وشككوا في أهدافه وأمواله. وأقول وأكرر الفلسفة العلمانية قائمة على نقد الآخرين وتسفيه آرائهم وعقائدهم، وهي بالتالي لم ولن تستطيع بناء المحبة والتعاون والتسامح.

5- ليطمئن بعض العلمانيين فالملتزمون بالإسلام بصورة صحيحة ليس في قلوبهم كراهية وحقد على غير المسلمين بما فيهم الأمريكيان ، فالمبادئ الإسلامية تجعلنا نحب الخير للناس، ونسعى لدعوتهم وهدايتهم، وتمنعنا من ظلمهم . وأي دراسة موضوعية ستثبت أن ثقافة التسامح لا توجد إلا في الإسلام بصورة شاملة وصحيحة وواقعية، وهي موجودة في كثير من الآيات والأحاديث، كما أن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مكتوبة ومعروفة، فاقراءوها وستشاهدون ألوانا كثيرة من تسامح الإسلام مع أعدائه ومع

المسلمين فحتى القاتل يتم العفو عنه إذا تنازل أهل القتل، وأمر الله سبحانه وتعالى بالستر، وكظم الغيظ والعفو والإحسان والتنازل عن بعض الحقوق، والصبر على الأذى والظلم..... الخ ولا توجد أبدا مقارنة بين ثقافة التسامح بالإسلام، وثقافته بالعلمانية ومدارسها، واعملوا مقارنة عادلة حتى تقتنعوا. قال تعالى: " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (8) سورة الممتحنة. وإذا كانت هناك آراء لجماعات إسلامية متطرفة أو فتاوى خاطئة تعطي غير مبادئ الإسلام فهي مرفوضة. وبالإمكان القيام في عصرنا هذا بدراسة ميدانية عن المسلمين الملتزمين في البلاد الإسلامية وفي بلاد الغرب وعلاقاتهم مع غير المسلمين سواء كانوا جيرانا أو أصدقاء أو أساتذة أو غير ذلك، وسنجد بالتأكيد أن غير المسلمين سيشهدون بحسن أخلاق المسلمين الملتزمين وصدقهم وأمانتهم، وأنهم لا يظلمون ولا يضررون. ونذكر هنا أنه حتى علماء الإسلام في أفغانستان وفي حكم طالبان عارضوا اعتداءات 11 سبتمبر على أمريكا، ولم يعتبروا ذلك عملا جهاديا يقره الإسلام. وثقافة التسامح لا تعني ألا نقول عن أمريكا والغرب أنهم أهل شرك وكفر وباطل، ولا تعني أن نصمت عن المواقف العدائية الأمريكية للمسلمين في فلسطين وغيرها، فلن نتنازل عن مبادئنا الإسلامية، ولا حقوقنا الوطنية، وثقافة التسامح لا تعني أن نتسامح مع من يقتل ويخون ويسرق ويعتدي ويظلم وينافق ويعق والديه ويفسد في الأرض، وهذا ما تطبقه جميع شعوب الأرض قال: " ولكم في القصص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون " (179) سورة البقرة فالتسامح له قوانينه والعقاب له أحكامه، وقبول الآخرين له ضوابط وهكذا. ومن الجهل والكفر أن نعتقد أننا سنشرع قوانين للبشر تكون أرحم وأعدل وأكثر تسامحا مما شرع لهم الله سبحانه وتعالى!!

أكذوبة الوسطية العلمانية

يظن العلمانيون وما أكثر ما يبنون بنيانهم على الظن لا العلم أنهم أهل وسطية، واعتدال، وموضوعية في الفكر والمواقف ونقول بأن رغبتهم في الوسطية والاعتدال هدف صحيح ولكن الفكر العلماني لا يؤدي إلى ذلك، فكم من مرید للحق لن يصيبه واليكم الأدلة :-

1- الفكر العلماني ليس فكرا وسطيا بين ما لدى البشر من عقائد بل هو فكر متطرف سيئ حتى ولو كانت فيه جوانب اعتدال، فالفكر

الشيوعي كان فكرا متطرفا للعمال والفقراء والقطاع العام، ومتطرفا في موقفه من الانتماءات القومية والوطنية، ومتطرفا في موقفه من الأديان السماوية..... الخ أما الفكر العلماني الرأسمالي فهو أقل منه تطرفا في موقفه من الدين، إلا أنه ليس فكرا وسطيا لأنه يرفض الدين ويعتبره أساطير، وتعصبا وتخلفا وهو فكر ينطلق كليا من آراء الفلاسفة ، ويلغي كل ما في التاريخ البشري من كتب سماوية وفكر لعلماء الأديان، ولا يعتبر الدين حتى أحد مصادر التشريع حتى ولو كان في أمة الغالبية الساحقة منها مسلمون أو مسيحيون، والفكر العلماني الرأسمالي ليس حلا وسطا لاختلافات المسلمين مع المسيحيين، فهو شئ ثالث مخالف لهما، أي هو يرفض تبني الحقائق المشتركة بين الإسلام والمسيحية من ضرورة طاعة الله سبحانه وتعالى، واتباع الرسل، والحرص على الأخلاق الفاضلة، والالتزام بالعبادة والأمور الروحانية..... الخ بل تجده يدافع عن الزنا والخمر والربا والتبرج، فكأنه يتعمد استفزاز الأديان السماوية في مواضع يعرف كل عقل سليم أنها انحرافات أخلاقية واجتماعية، وتطرفهم يجعلهم يثيرون الفتن والأزمات ، ولو نظرنا للفكر الإسلامي لوجدنا الاعتدال في عقائده وعباداته وشريعته، فهو مع مصلحة المجتمع لا مصلحة العمال ولا التجار وهو يوازن بين أمور الدنيا وأمور الدين، وبين الفرد والمجتمع والحديث طويل، ونختصره في قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس" (143) سورة البقرة فالوسطية هي صفة رئيسة في فكرنا منذ خمسة عشرة قرنا.

2- لم يكن العلمانيون وسطا في المواقف السياسية فهم لا يمثلون الاعتدال داخل أسرهم وعوائلهم وقبائلهم وشعوبهم وأمتهم ، فبعضهم يميني، وبعضهم يساري، وهناك معتدلون، وتراوح تحالفهم وأحيانا ولائهم من روسيا إلى أمريكا وأصبحت مجموعة كبيرة منهم اليوم موالين لأمريكا ، ومدافعين عن مصالحها ، وليس فقط فكرها إلى درجة أنهم أصبحوا ينافسون أكثر الأمريكان تطرفا، فكل ما تفعله أمريكا حق وصواب حتى لو خالفت موثيق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان كقتل المدنيين والأسرى في أفغانستان. ولا يعتبر العلمانيون تجمعا معتدلا في الحياة السياسية العربية؛ فهم انعزاليين و مغرورون وعلاقاتهم بالقواعد الشعبية - ناهيك عن القوى السياسية - هي علاقات ضعيفة، أو مقطوعة وليسوا قوة معتدلة تلتقي عندها القوى الشعبية في حلول وسط، ومما يثبت عزلتهم

وضعفهم هو سقوطهم الكبير في أي انتخابات شعبية حرة، ولو كانوا كانوا يمثلون الاعتدال والوسطية لنجحوا، وهذا شئ طبيعي، فتطرفهم الفكري والسياسي يجعلهم منبوذين من مجتمعهم، ولو كانوا وسطا لكانوا مندمجين في مجتمعهم في أمالهم وآلامهم وأهدافهم ومواقفهم وأقوالهم.

3- والعلمانيون ليسوا وسطا بين الكلام والعمل، بل هم أهل كلام وجدل وفلسفة وسخرية ونقد، ونصيبهم من الإنجازات العملية محدودة جدا، فهم ظاهرة صوتية عاجزة عن تحقيق إنجازات كبيرة عملية، ليس فقط في المجال السياسي، بل أيضا في المجال الاجتماعي والاقتصادي والخيري، ولو قارنا مساهمتهم العملية في العمل الخيري مع الاتجاه الإسلامي لوجدنا فرقا هائلا، بل لا توجد حتى مقارنة !!.

4- والعلمانيون ليسوا وسطا أيضا في فهمهم للحياة وشموليتها، فأغلب جهودهم وتفكيرهم واهتماماتهم في الجانب السياسي والاقتصادي، وبهما وضعوا أغلبية بيضهم إن لم نقل جميعه، أما سلة العقائد وسلة الأخلاق وسلة الحياة الاجتماعية فهي فارغة أو شبه فارغة من بيضهم، فنادر جدا ما تجد علمانيا يطالب بالأخلاق الفاضلة، ويعرف كيف يصل إليها، وعندما نتكلم عن الأخلاق مثلا فنحن نتكلم عن شئ هام جدا في حياة كل فرد، أو أسرة، أو مجتمع، أو دولة، فهي أساس من الأسس الرئيسة للبناء قال أحمد شوقي رحمه الله:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

5- يقوم الفكر العلماني في جوانب أساسية منه على النقد والجدل والاتهامات والسخرية مما يجعل العلماني في حالة نقد وصراع واختلاف مع مجتمعه والآخرين؛ فلا تعجبه عقائد مجتمعه، ولا عاداته، ولا مواقفه السياسية، فكثير منهم لا يرى الإيجابيات بل يرى السلبيات فقط، ولهذا يصبح الأغلبية إن لم نقل الجميع منحرفون أو مقصرون أو مخطئون وهذا ليس من الوسطية، والاعتدال، فكما أن هناك سلبيات فهناك أيضا إيجابيات، وكل سلبية أو إيجابية يجب أن يعطيه وزنها بلا مبالغة، ولا يوجد دولة أو جماعة بلا سلبيات. والوسطية تتطلب الموضوعية في الحكم على الأفراد والاتجاهات والعقائد والأحزاب والدول والتاريخ، وهذا شئ مفقود كليا عند العلمانيين، فقد أشبعوا الشرق واليسار مدحا قبل نصف قرن،

وأشبعوا اليمين والغرب ذما والآن انقلبوا من تطرف إلى تطرف، ولعل أوضح دليل على عدم موضوعيتهم ووسطيتهم هو موقفهم من الاتجاه الإسلامي، فلم تعجبهم جماعة واحدة فيه على كثرة ما فيه من جماعات واجتهادات ومدارس فكرية، ولم يمدحوا إلا نادرا موقفا واحدا سواء كان جهاديا أو خيريا فهم متطرفون في عدائهم وفي ولائهم ومن لا يعجبه العجب، ولا الصيام في رجب فهو بالتأكيد بعيد عن الاعتدال والحق.

العلمانيون بلا مبادئ

قد يظن البعض أن اتهام العلمانيين بأنهم بلا مبادئ قول فيه تجن ولكنه حقيقة يجب أن يعرفها العلمانيون قبل غيرهم، وسأسلط الأضواء على العلمانيين الغربيين لأنهم النموذج الأشهر حاليا بعد انقراض العلمانيين الشيوعيين وإليكم الأدلة:-

(1) الحرية الكبيرة:- عندما يكون حجم الحرية كبيرا فهذا دليل على دائرة متسعة من التصرف مما يجعل المبادئ التي يلتزم بها الفرد محدودة فهو حر في أن يعبد الله سبحانه وتعالى، أو يكفر به، وهو حر في أن ينحرف أخلاقيا أو يستقيم، وهو حر في أن يشرب الخمر ويتعاطى المخدرات أو يمتنع، وهو حر في أن يذهب للكنيسة أو للمسجد أو لا يذهب، وهو حر في أن يكذب وان يتصرف في ماله كيف شاء..... الخ هذه الحرية تثبت أن "مذهبهم وسيع" وأنه لا توجد مبادئ كثيرة يلتزمون بها. وفي المقابل نجد عندنا في الإسلام مبادئ كثيرة تتحكم في حريتنا وشهواتنا وانفعالاتنا ومالنا وعلاقتنا بوالدينا وأسرتنا. . . الخ وقد يقول العلمانيون أن عندهم قوانين لكثير من الأمور، وهم ملتزمون بها، وأقول المبادئ اشمل واكبر من القوانين، فالقوانين تتغير بالتصويت، والمبادئ ثابتة، وليس كل القوانين مبادئ بل أغلبها ليست كذلك، وعندما تكون مبادئك متغيرة فليست عندك مبادئ، ولا يوجد عند العلمانيين شيء يجب الالتزام به إلا الدستور والقانون وما عداهما فهو غير ملزم أي منطقة حرة، أو بكلمات أدق ليس عندهم مبادئ وقيم خارج ما اتفق عليه الشعب في دستور أو قانون، وبالتالي فمبادئهم ناقصة، ولا تشمل الحياة بتشعبها وتنوعها وعمقها!!.

(2) "المبادئ شخصية" من المعروف أن الفكر العلماني الرأسمالي عجز عن تحديد المعايير والمقاييس التي تحدد الحق من الباطل،

والصواب من الخطأ، ولهذا نجد للأفراد العلمانيين عقائد ومبادئ مختلفة، فما يراه هذا حقا يراه الآخر باطلا فهذا العلماني مقتنع بأن المال هو أهم ما في الحياة، والثاني مقتنع بتفوق الإنسان الغربي، والثالث بأن الزواج شر، وتختلف، وهكذا.... الخ وهذا التناقض مقبول عندهم ولا يخالف مبادئهم، وبالتالي فهناك مساحة كبيرة جدا من العقائد والسلوك والأعمال مسموح بها مما يجعل دائرة المبادئ المتفق عليها محدودة إلى درجة كبيرة، ولو نظرنا للفكر الإسلامي لوجدنا أن المعايير ثابتة، والحق واضح، والباطل واضح، وإذا حدث انحراف من المسلم فهو يعرف أنه انحراف عن المبادئ، في حين أن الانحراف الواضح كالجنس بين الرجال يعتبر في الغرب حرية شخصية، أي جزء من مبادئهم، فما الذي بقي في مجال الجنس حرام؟! فمساحة الحرام في الجنس وغيره محدودة جدا وهذا دليل على تحكم الأهواء والشهوات والمصالح في "مبادئهم"، والمبادئ تقوم على العلم واليقين، والعلمانية قائمة على الظن والشك، كل هذا يجعل من الطبيعي أن تكون مساحة المبادئ قليلة، والإيمان بها ضعيف.

(3) "الحياد السلبي" كثير من العلمانيين أعجبته "مبادئهم" مثل الناس أحرار في عقائدهم، والدولة لا تتدخل في عقائد الناس، وأعمالهم وحررياتهم..... وهذا الكلام الجميل كارثة عقلية وعلمية، وأيضا كارثة للمبادئ، فالعلمانية تحرص على الحياد، وعلى قلة المبادئ التي تؤمن بها. وبالتالي فالمعارك العقائدية التي تحدث بين أصحاب العقائد المختلفة الدينية والعلمانية لا تتدخل فيها، ولا تنصر حقا ولا تهزم باطلا، فكلها عندها آراء لا تستحق الدراسة والحسم، فالحق آراء، والباطل آراء، ومن المعروف أن من يتمسك بالمبادئ هو من يدخل في اختلاف وصراع مع الانحرافات سواء كانت عقائدية أو سياسية أو اجتماعية أو إدارية.... الخ. فعند العلمانيين أن تكون مؤمنا بالله سبحانه وتعالى أو كافرا به قضية يمكن الوقوف فيها على الحياد، وكذلك ليس هناك فرق بين أهل الطاعة وأهل المعاصي، ولا يوجد أمر بالمعروف ولا نهي عن منكر، ولا يهتمون بالانحرافات كالتبذير والفساد الأخلاقي والاجتماعي والغرور والغيبة..... الخ وقديما قالوا: "لو قلت الحق لأبغضوك" ولهذا نرى تفاعل العلمانيين والمتأثرين بالعلمانية مع قضايا مجتمعهم محدود وجزئي، ويتركز على بعض القضايا السياسية والفكرية.

(4) الإيمان بالقوانين:- الكارثة الرابعة التي تثبت أنهم بلا مبادئ أو مبادئ محدودة أن بعض وقد يكون كثير من العلمانيين لا يلتزمون بالدستور والقانون، فإيمانهم بمبادئهم ضعيف، وأحيانا غير موجود، فلو أخذنا مثلا المتأثرين بالعلمانية والعلمانيين في الكويت، وأخذنا شرب الخمر وهو ممنوع قانونا، فهل هم ملتزمون بذلك؟ الجواب إن بعضهم لا يتردد في شرب الخمر، بل ويعتبر فعله هذا حضارة وتقدمية مع انه مخالف للقانون الذي ارتضاه الشعب الكويتي، والأخطر من ذلك أن هذا الانحراف يتعارض مع مبادئهم التي تدعو للسيادة للشعب، والالتزام بالقانون، فهذا كفر بالمبادئ العلمانية، فالتزامهم بهذا القانون أو ذاك، وانحرافاتهم عن هذا أو ذاك خاضع للاقتناعات الشخصية والشهوات والعصبيات والمصالح والضغوط. فالمطالبة بالالتزام بالقانون تصبح لا معنى لها لأنها مسألة اختيارية ومزاجية وانتقائية وهذا هو بالضبط ما يفعله كثير من المنحرفين المجرمين في تعاملهم مع القانون والمبادئ، وقد يعرف المنحرف انه منحرف إذا سرق أو زنا أو شرب الخمر ولكن العلماني يعتبر انحرافه أيا كان نوعه حقا وحرية، وكثير ما يقلل العلمانيون من أهمية المبادئ، ويعتبرون كل هذه الانحرافات، وغيرها قضايا هامشية وشخصية، فالمهم عندهم الاقتصاد والسياسة، ولو سلطنا الأضواء على الأوضاع الجنسية في الغرب لوجدنا الحيوانات أكثر نضجا ورقيا في تعاملها مع الجنس منهم، ولو جدنا الفساد الأخلاقي مسئول عن جزء كبير من شقائهم فقد تحطمت عندهم الأسرة وازدادت العزوبية ودمرت مفاهيم الحب والوفاء والإخلاص وانفتحت أبواب الخيانة والاعتصاب والطلاق والإجهاض والأبناء الغير شرعيين الخ، وتم الاهتمام بدرجة أكثر من المطلوب بأدوات التجميل والمواصفات الجسدية، والأطعمة قال تعالى: "فاعرض عنم تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا (29) ذلك مبلغهم من العلم وربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى" (30) سورة النجم وقال تعالى: "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون" قال عبد القادر الجيلاني لغلامه "يا غلام لا يكن همك ما تأكل، وما تشرب، وما تلبس، وما تنكح، وما تسكن، وما تجمع كل هذا هم النفس والطبع، فإين هم القلب؟ همك ما أهمك فليكن همك ربك عز وجل وما عنده" (1)، ووصف سعد بن معاذ رضي الله عنه المشركين فقال: "رأيت قوما ليس لهم فضل على أنعامهم، لا يهتمهم إلا ما

يجعلونه في بطونهم وعلى ظهورهم، وأعجب منهم قوم يعرفون ما جهل أولئك ويشتهون كشهوتهم". (2)

(1) ص 77 كتاب علو الهمة- الأستاذ محمد أحمد إسماعيل المقدم

(2) ص 46 كتاب علو الهمة الأستاذ محمد أحمد إسماعيل المقدم.

الأسس الجاهلية للعلمانية الرأسمالية

حتى نفهم العقائد والمبادئ وحظها من العلم والعقل أو الجهل والحماقة فمن الضروري أن نتعمق فيها ونبحث عن الأدلة العقلية التي تنطلق منها، فإذا كانت هذه الأسس صحيحة فإن ما بني على حق فهو صحيح، أما إذا كانت قائمة على الظن والآراء والنسبية فما يخرج منها إلا جهل حتى ولو كان بعضه صحيحاً بحكم الصدفة والحد الأدنى من الذكاء للعقل البشري، والعلمانية الرأسمالية قائمة في قواعدها على الجهل، وبالتالي لا تتوقع منها نورا لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وإليك الأدلة :

1- فصل الدين عن الدولة: استند اقتناع العلمانيين الرأسماليين بهذا المبدأ إلى الانحرافات التي حدثت من رجال الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى. والخطأ الذي وقعوا فيه هو اتهام الدين بأنه سبب الانحراف، ومن المعروف أن كل المبادئ الدينية والعلمانية يحدث باسمها انحرافات، لأنه ينتمي لها أحياناً من ليسوا ممثلين حقيقيين لها سواء عن علم أو عن جهل، ووجدنا فيمن ينتمي للإسلام منافقين وظالمين وتصوف منحرف وخوارج ومرجئه.. الخ والخروج من هذا الانحراف هو بالتمسك بالدين الصحيح.. ولم يرفض العلمانيون الدين المسيحي فقط، بل رفضوا كل دين آخر حتى ولو كان لا يتعارض مع العلم المادي أو لديه أدلة عقلية صحيحة أنه دين الله. والأديان السماوية ليست أشياء قائمة بذاتها، بل هي ما أمرنا الله سبحانه وتعالى به، وبالتالي فرفضها هو قطع علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى، وقال العلمانيون تترك الدين، وتتبع العقل والعلم وكان بين الموضوعين تناقض، وهذا موضوع وضحته عدة مرات، وفصل الدين عن الدولة عبارة فيها مكر، فإذا كان الدين خطأ فليقولوا أنه باطل وخطأ كما فعل الشيوعيون، ويرفضونه علانية، وإذا كان حقاً وصواباً فيلتزموا به، ولكنهم لم يفعلوا هذا أو ذاك، بل قبلوه وأمنوا به نظرياً،

ورفضوه وكفروا به عملياً!! آمنوا ببعض عقائده وأحكامه وعباداته مما يدور في الحياة الشخصية، ورفضوه في مجال شؤون الدول والسياسة، بل حتى الجانب الشخصي منه حاربوه بتشجيع الفساد الأخلاقي والزندقة باسم الحرية الشخصية. ولا نختلف مع العلمانيين بأنه حدث انحراف رجال الكنيسة، بل نؤمن بأن هناك تحريف في المسيحية، ولكن إثبات العلمانيين لذلك ليس دليلاً على صحة السير في الاتجاه المعاكس المناقض للدين لأنهم لم يثبتوا بالأدلة العقلية إطلاقاً أن آراء الفلاسفة العلمانيين هي الطريق إلى الحق والصواب، وكانت العلمانية الشيوعية تحاول أن تبحث عن أدلة عقلية تستند إليها كمنظريه داروين والحتمية التاريخية، وهذه أدلة فاشلة، أما العلمانية الرأسمالية فهي لم تقدم دليلاً واحداً على صوابها، بل تعيش على الشعارات والأهداف العامة، وادعاء العلمية والعقلانية، وعلى كيل الاتهامات "أسلوب الفلاسفة" بالحق وبالباطل لخصومها أصحاب الأديان السماوية، وحتى العقائد العلمانية الأخرى بأنهم أعداء الحرية والديمقراطية والتسامح والعقل والعلم والمرأة... الخ. وهذا الهجوم العلماني نجح في إرباك وتشويه خصومها، وكذلك في حماية بنيانها الفكري الهزيل، وتمت حمايته أيضاً بالقوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والإعلامية لأمريكا وأوروبا. ولكن هذا الوضع لن يستمر، ونطالب العلمانيين بأن يتعمقوا في دراسة أصول مبادئهم حتى ينقذوا أنفسهم من أذكي عملية تزوير فكري في التاريخ!!.

2- آراء الفلاسفة: العلمانية هي الفلسفة، وكتب الفلاسفة الكتب والمقالات في العلم الفكري المتعلق بوجود الله سبحانه وتعالى وصفاته، والعدل والحرية والمساواة والألم والخير والشر... الخ وهم لم يصلوا إلى علم، ولم يتفقوا على فكر محدد أنه حق وصواب، ولكن أعطوا آراء فيها باطل كثير، وحق قليل، أي هي آراء وظن وليس حقائق ويقين، قال تعالى: (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) (28) سورة النجم. والآراء الفلسفية هي المنبع الرئيس للعلمانية والغريب فعلاً أنهم يعترفون أنها آراء، ومع هذا يتعصبون لها، ويقولون ستهدينا للحق والصواب، وما ينطبق على الفلاسفة ينطبق على سياسيين ومثقفين يتكلمون في الغرب عن حوار الحضارات وصراعها وحقوق الإنسان وحرية المرأة، والإجهاض، والإرهاب فاجتهاداتهم هي آراء ليست مبنية على

مع العلمانية وغيرها مطلوب وهو في أغلبه في مناقشة الأسس التي تقوم عليها لا في الفروع والجزئيات.

5- التجاهل: من أهم أسس العلمانية الرأسمالية التجاهل، فهي تتجاهل قضايا كثيرة عقائدية واجتماعية وأخلاقية ونفسية بحجة أنها قضايا ما وراء الطبيعة، أو حريات شخصية، أو لا أهمية لها في الحياة. وهذا التجاهل والهروب كارثة، وهو لو تعمقنا فيه ترك لأغلب القضايا التي تواجه الإنسان بدون تحديد الحق من الباطل فيها، وهو أيضاً إعلان عجز العقل العلماني عن الوصول إلى حسم فيها لأنه فشل في ذلك وتعب من النقاش والجدل حولها. فالأسرة تحتاج إلى كثير من المبادئ والأحكام والأخلاق حتى تسير بصورة صحيحة، ولا نجد للعلمانية مفاهيم محددة في هذا الموضوع، بل لا تعرف من الموضوع غير بعض القوانين التي بيد الدولة، أما غيرها فتجاهلها ومرتبطة بذلك هو ما نراه من حيادية العلمانية في كثير من الأمور فهي تقول أنها ليست مع الله سبحانه وتعالى ولا ضده، وليست مع الأديان ولا ضدها، وهذه الحيادية نوع من التجاهل، وهي إذا تعمقنا فيها ليست مع الحق، وليست ضد الباطل، وهي أشبه ما تكون بفرد متبلد الإحساس، ولا مبالي لا علاقة له بكثير مما يدور في هذا العالم من صراع بين الخير والشر.

6- الحلول الوسط والنسبية: نعلم أن الحلول الوسط والنسبية تصلح للوصول إلى اتفاق في قضايا اجتهادية سياسية أو اجتماعية أو غير ذلك، ولكن لا تصلح هذه الأمور لتحديد ما هي المبادئ الصحيحة؟ فلا يجوز أن يكون الحق نسبياً أو يتم مقارنة بين مبدئين، وبناء على ذلك نأخذ الأفضل فقد يكون الأفضل سيئاً، ولكن إذا تم مقارنته بما هو أسوأ منه يكون حسناً كأن يقال: يسمح بالخمير لأنها أقل ضرراً من المخدرات، ومما يذكر هنا أن العقل العلماني الأمريكي منع الخمر في بداية القرن العشرين، وهذا حق وصواب، فلما وجد معارضة شديدة سمح بها، أي خضع للشهوات والأهواء، وهذا هو جزء هام من مصادر الفكر العلماني، ويكمله فلسفة من يريد أن يشرب الخمر فليفعل، ومن لا يريد فليمتنع، فهذا حل وسط بين العقل وبين الشهوات، وإذا حدث صراع بين أقوياء وضعفاء على مستوى دول أو أفراد نجد الحلول العلمانية في الغالب هي حلول وسط حتى لو كان الحق واضحاً. وهذا قد يكون مقبولاً إذا كنا عاجزين عن إعطاء الحق لصاحبه، ولكن هذا جزء من

ولا بين النظرية والتطبيق، وهم من أجهل الناس في القرآن الكريم والأحاديث النبوية وتاريخنا الإسلامي... الخ. فالنقاش مع فرد لا يفهم فكر قضية تحتاج إلى صبر وإزالة شبهات كثيرة من خلال حوارات طويلة ولكن ليست هذه المشكلة الأساسية بل هي في اقتناع العلماني أنه يعرف، وبالتالي لا يريد أن يستمع، ومن لا يستمع كيف سيقنع؟ ألم أقل إنها حالة صعبة؟!.

3- النقاش السطحي: أدى جهل العلماني بأساسيات الإسلام، واعتماده على معلومات خاطئة إلى امتلاء عقله بشبهات واتهامات كثيرة، وفهم خاطئ لأمر كثيرة عقائدية وسياسية، وأحداث وتاريخ وشعارات وأهداف، سواء في الدائرة الإسلامية أو العلمانية، وإذا حاولت أن تختصر النقاش وتنقله إلى الأساسيات والمبادئ الإسلامية والعلمانية وجدته ينقله إلى نقاط فرعية كثيرة كأحداث سياسية، أو تقييم جماعات، أو أفراد، أو اجتهادات، وهذا فيه إضاعة لأصول الحوار ومنايع الاختلاف الحقيقية، فالنقاش يجب أن يكون فكرياً وجذرياً أولاً، إن النقاش في الفرعيات والأحداث السياسية محدود الفائدة في الغالب في حين أن النقاش في الأصول الفكرية يحسم كثيرا من الأمور إن شاء الله. والغريب أن أغلبية العلمانيين لا يعرفون العلمانية ولا ما هي أدلتها؟ ولا ما هي نتائجها؟ وإذا كانوا لم يتعمقوا في مبادئهم فهل نستغرب سطحتهم في فهم الإسلام؟!.

4- "المصالح لا المبادئ" أصبحت العلمانية أحد وسائل الشهرة والمناصب والمكاسب المالية، فهناك من يصفق للعلمانيين، ويدعوهم لمحاضرات ويشجع مقالاتهم، ويمدح كتبهم، وهناك من أصبح رئيس حزب أو اتحاد أو جمعية أو جريدة أو نائبا أو كاتباً بل أصبح انتقاد الإسلام هو ورقة الشهرة لمؤلفين أو أساتذة جامعة تجعل الدول الأجنبية تحتضنهم وتدعوهم وتعتبرهم مفكرين وضحايا الإبداع والحرية. وهناك علمانيون صادقون في اقتناعهم، ولكن هناك من كسب من العلمانية، وحقق مصالح لن تتحقق له بدونها، ولا شك أن الشهرة فتنة، وكذلك المناصب والمال. وتبني البعض العلمانية لأنها تفتح له باب الفساد الأخلاقي والخمر باسم التحرر والحرية الشخصية، ومما يثبت أن للمصالح والأهواء والشهوات دورا كبيرا في حياة أغلبية العلمانيين أن تمسكهم بمبادئهم المعلنة كالديمقراطية والحرية ضعيف، فهو لا يزيد عن "كلام" لا يزعج أشد المستبدين والظالمين فتضحياتهم محدودة أو غير موجودة، أما الصادقون من

العلمانيين فاكثفوا بالصمت واليأس والتذمر والعزلة واللامبالاة والانشغال بأهداف شخصية، وكلاً النوعين المنافق والصادق يجعلك تقتنع أنك أمام حالة صعبة! هل تعالجها أم تتجاهلها؟

لماذا أصبحوا علمانيين؟

قد يكون من المهم أن نتعرف على الأسباب التي أدت إلى اقتناع بعض العرب المسلمين بالعلمانية والتي منها:-

1- الإعجاب بالنموذج الأمريكي والأوروبي: بعض العلمانيين العرب هم خريجو جامعات أوروبية وأمريكية، وأغلبيتهم الساحقة ذهبوا إلى الغرب وهم شباب صغار، وأعمارهم أقل من عشرين عاماً، فانبهروا بما شاهدوه من حرية رأي، وديمقراطية وتكنولوجيا ونظام وإدارة وغنى وعدل، وقارنوا ذلك بما في أغلب بلادنا العربية من استبداد وظلم وفقر وتخلف تكنولوجي وإداري؛ فكان طبيعياً أن يظنوا أن سبب تقدم الغرب هو مبادئهم العلمانية، وسبب تخلفنا هو مبادئنا الإسلامية، والغريب فعلاً أن العلمانية ليست هي سبب تقدم الغرب، وفي المقابل ليس الإسلام سبب تخلفنا، لأن أغلبنا لسنا ملتزمين بالإسلام كحكومات أو شعوب، وكان من المفروض أن يفهم هؤلاء لماذا تقدم الغرب؟ وفي أي المجالات هو متقدم وأيها متخلف؟ وكذلك ما هي أسباب تخلفنا كشعوب وحكومات؟ ولو فعلوا ذلك لما تأثروا بالعلمانية، ومما يدعو للاستغراب أنهم لم ينقلوا إلينا تقدم الإدارة الغربية، ولا التكنولوجيا الأمريكية، بل ركزوا جهودهم على نقل العلمانية التي هي الفشل العقائدي والأخلاقي الغربي.

2- أحد أهم أسباب استمرار إعجاب العلمانيين العرب بالعلمانية أن النموذج الإسلامي الصحيح غير مجسد بالصورة المطلوبة في أغلب الممثلين للاتجاه الإسلامي كأفراد أو جماعات أو اجتهادات، فهناك تطرف إسلامي كبير أو صغير، وهناك ضبابية فكرية وسياسية لبعض الجماعات الإسلامية، وهناك أخطاء كبيرة من الإسلاميين، وهناك فهم خاطئ لقضايا الحرية والديمقراطية والأحزاب وإذا أضفنا إلى ذلك حملات تشويه مستمرة للإسلاميين من الإعلام الأجنبي، ومن بعض الأنظمة العربية، يصبح من الطبيعي أن ينفر كثير من العلمانيين من الإسلاميين والمبادئ الإسلامية!!.

3- أغلب ردود الاتجاه الإسلامي من كتب ومحاضرات ومقالات في بيان خطأ العلمانية ليست بالمستوى المطلوب وقد يكون هذا شيئاً غريباً مع كثرة علماء الإسلام ومفكره، ولكن الغرابة تزول إذا عرفنا أن الأغلبية الساحقة منهم مهتمة بأمور أخرى كالعبادات والأحكام الاجتماعية والاقتصادية والعقائد والفقهاء والدعوة والأعمال الخيرية، أما من كتب عن العلمانية، وهم قلة فكانت أغلبية كتاباتهم جزئية، وغير عميقة، وغير شاملة، ويمكن أن يضاف إلى قلة اهتمام علماء الإسلام بالكتابة عن العلمانية عدم إدارتهم لخطورتها. وكثير منهم لا يعلم أن العلمانية كانت ولا زالت أحد أهم أسباب ضعف الأمة لما تثيره من فتن عقائدية وسياسية.

4- أحد مصائب أمتنا هو ضعف الاتصالات بين علماء الإسلام والمتأثرين بالعلمانية، وبين السياسيين والإداريين، وبين الأغنياء والفقراء، وبين أصحاب العمل والعمال، وبين الحكومات والشعوب ... الخ . والحوار ضعيف حتى بين الإسلاميين أنفسهم، ويهملنا هنا الحوار بين المسلمين والمتأثرين بالعلمانية من المسلمين حيث لا نجد حوارات منظمة وعميقة ومفتوحة يتم فيها مناقشة العلمانية والإسلام، والعقل والاجتهاد، والعلم والفلسفة، والحرية والعدل.. الخ. وإذا وجدنا حوارات فهي جزئية وسريعة أو جدلية، أو بين أطراف غير مؤهلة. ومن المعروف أن الانغلاق والعزلة والسرية تؤدي إلى الثقة الكبيرة بالعقائد والافتقار والمواقف والفهم والى سوء الظن بالآخرين، والافتقار بأنهم سطحيون أو أغبياء أو دجالون أو مخدوعون . ولهذا ندعو للحوار والحوار والحوار، فنحن نحتاج إلى مئات الحوارات العلمية بين كل فئات شعوبنا، ليس فقط في موضوع العلمانية بل في كل المواضيع كالديمقراطية، وحقوق الإنسان، والإصلاح الإداري، والبحث العلمي، والتعليم، والزواج، والعنوسة، والفقر، والتوظيف، والاتصالات، والتخطيط... الخ.

حسم الخلاف مع العلمانيين

عندما أدعو إلى تركيز بعض الجهود الإصلاحية في اتجاه هدم العلمانية فذلك ليس لأنها قوية فكرياً، بل لأنها سببت أضراراً هائلة للبشرية عقائدية ونفسية واجتماعية، فقد اقتنعت بها دول وأفراد، وكما تم إنقاذ البشرية من المبادئ الشيوعية، وهي أحد فروع العلمانية، فواجبنا أن نسعى لإنقاذها من العلمانية الرأسمالية، ونحن

قادرون إن شاء الله على بيان جهلها وخطرها إذا حاربناها بطريقة صحيحة وشاملة وعميقة وليست خاطئة وجزئية وسطحية كما وجدنا في كثير من الكتب الإسلامية التي تطرقت لهذا الموضوع، وأحد أهم وسائل هدم العلمانية هو الوصول إلى تطبيق النموذج الإسلامي الصحيح كأفراد وجماعات وأحزاب وأسر ودول، وعلى كثير من جهود الإصلاح أن تتوجه في هذا الاتجاه خاصة في الدول العربية والإسلامية ، وكما سقطت الشيوعية خلال سنوات قليلة بل شهور قليلة في بعض الدول، فإن العلمانية الرأسمالية ستسقط بإذن الله لأن شرها أخذ يزداد في الشعوب التي تؤمن بها، ولأن الوعي الإسلامي بخطورتها أصبح يزداد أكثر وأكثر، ونقول للعلمانيين العرب هناك عدة وسائل لحسم الخلاف معكم، فاخاروا أحدها أو حتى كلها حتى تنهي الخلاف معكم جذريا واليكم هذه الوسائل:-

1- الحسم العلمي: أن يتم التعمق في الإسلام والعلمانية من خلال دراسات علمية جادة وحوار علمي راق يدافع كل طرف فيه عن مبادئه، ويتم النظر في الأدلة العقلية (العلمية) التي تثبت صوابه وخطأ خصومه، ولا مجال لآراء خاطئة تقول أن العلمانية ليست ضد الإسلام والإسلام ليس ضد العلمانية، أو أن العلمانية تعنى العلمية والعقلانية والحدثة..... الخ فهذا فهم خاطئ، ومن يقوله لا يعرف ماهي العلمانية أو لا يعرف ما هو الإسلام أو لا يعرفهما معا . ونحن هنا نتكلم عن الإسلام الصحيح لا الإسلام الجامد، أو الرجعي، أو اجتهادات خاطئة. والحسم العلمي هو الذي يجب أن يختاره كل عاقل، وهو يتطلب حوارات شخصية وجماعية وخاصة وعامة وعميقة وطويلة فالموضوع لا يمكن حسمه في ساعة أو ساعتين ومطلوب أن يعطي كل طرف حقه، وأن يختار كل طرف أكثر الناس علما وإخلاصا، والملاحظ أن هذا الأسلوب يكاد أن يكون غائبا لأن الموجود هو تبادل الاتهامات والتشويه، وخلط الأوراق وعندما نقول حوارا علميا فهذا يعنى أنه سيكون بعيدا عن الجدل والجزئيات، ويتم التركيز فيه على الأصول الفكرية للإسلام والعلمانية وماهي أدلتها العقلية ونصيبتها من الصواب أو الخطأ، ولا تستغربوا إذا وجدتم العلمانيين أو المتأثرين بالعلمانية أبعد الناس عن الحوار العلمي الجاد، بل لا يرغبون حتى بالحوار فهذا شئ واجهته شخصا مع بعضهم.

2- الاستفتاء الشعبي: أن يجري استفتاء في الأمة للاختيار بين الإسلام أو العلمانية بعد أن يعطى الطرفان الحرية الكاملة في بيان مبادئهم، ونقد الآخرين، ثم يتم الاستفتاء بين المبادئ الإسلامية والمبادئ العلمانية، وهذا الخيار عادل وحاسم إسلاميا وعلمانيا، ففي الإسلام من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وفي العلمانية الغربية رأي الشعب مقدس، والتصويت هو الوسيلة المقبولة عندهم للحسم، وهو يتناسب مع إيمان الطرفين بحرية الإنسان وحقه في تقرير مصيره، وقد يقول علماني لسنا ضد الإسلام والدين وهذا فهم متطرف للعلمانية، وأقول قولوا ذلك للناس ولا تقله لي لأنني أعرف العلمانية وأعرف الإسلام، وأعلم يقينا تناقضهما فإذا اقتنع الناس أن علمانيتكم ليست ضد الإسلام وأن فهمنا للإسلام هو المتطرف فسيصوتون لكم، ولنا أيضا الحرية في بيان وجهة نظرنا، وفي استفتاء علماء الإسلام الواعين المخلصين في الموقف الإسلامي من العلمانية مع أن موقفهم معروف ومكتوب ومشهور. قال الدكتور فؤاد زكريا في ختام كتابه: "الحقيقة والوهم" "إن كثيرا من المعترضين على مقالاتي، قد تمسكوا بالحجة القائلة: إن تطبيق الشريعة هو - الآن - مطلب شعبي واسع النطاق، ولست أملك أن أخالف رأيهم في هذه المسألة" (1).

(1) ص 87 الإسلام والعلمانية وجها لوجه د. يوسف القرضاوي

وقال الشيخ محمد الغزالي "وكما قلنا إن الحكم على إرادات الشعوب بالإعدام لأنها تريد الإسلام لا هو ديمقراطية ولا هو شوري ولا هو دين ولا هو دنيا" (1).

(1) ص 114 المواجهة بين الإسلام والعلمانية د. محمد صلاح الصاوي.

3- الحسم السياسي: الوسيلة الثالثة للحسم هي الحسم السياسي بإيجاد مجالس شعبية منتخبة، ثم تقرر هذه المجالس الموقف من العلمانية، وأعتقد أن هذا الأمر تم حسمه في كثير من الدول العربية وظهر في نتائج انتخابات مجالس شعبية، واتحادات طلابية، وجمعيات مهنية ودساتير وقوانين، ففي الكويت مثلا يسيطر الإسلاميون على اتحاد الطلبة منذ أكثر من عشرين عاما كما أن بعض منافسيه أيضا من الإسلاميين وهذا وغيره كثير في دولنا العربية ويثبت القوة السياسية للاتجاه الإسلامي، بل لا أبالغ إذا قلت أنه

ليست هناك مقارنة بينه وبين العلمانيين والأغلبية الساحقة منهم لا تستطيع أن تنافس، ناهيك عن النجاح، وضعفهم واضح حتى داخل أجزابهم وتجمعاتهم، فهم قليلو العدد، ومختلفون حول قضايا كثيرة، وتأثيرهم على حكومات أو قرارات أو أحداث هو تأثير قليل إن لم نقل منعدم، وأي جرد لما حدث في الأمة خلال الثلاثين سنة الماضية يثبت ذلك، أما أصحاب الاتجاه الإسلامي من عقلاء أو متطرفين فهم الذين يملئوا الساحة بالحق والباطل، ويصلحون ويفسدون، ولو أخذنا جانبا واحدا وهو الإنجازات الخيرية التي عملها الاتجاه الإسلامي جماعات ومنظمات وجمعيات وأفراد وقارناها بما قدمه العلمانيون لو جدنا الفرق شاسعا جدا، ويدرك العلمانيون قبل غيرهم أن عددهم قليلة جدا، وأن الترابط بينهم ضعيف، وأن الاستعداد للتضحية محدود جدا، فهم أهل كلام لا أعمال لأن العمل يتطلب الاقتناع الشديد بالمبادئ أي الإيمان، والعلمانية عقيدة قائمة على آراء الفلاسفة وما فيها من الظن والشك والتناقض والجزئية وبالتالي سيكون إيمانهم ضعيفا، وكذلك استعدادهم للعمل والتضحية.

4- الحسم الثقافي: إذا تم اختيار الحسم الثقافي فس نجد أن عدد الكتب الإسلامية التي تم تأليفها في الوطن العربي أكثر بكثير من تلك التي ألفها المدافعون عن العلمانية من العرب والمحاضرات الإسلامية الأكثر حضورا، والترابط بين المفكرين الإسلاميين أكثر قوة، بل إن بعضهم يتم دعوته لأمريكا وأوروبا لإلقاء محاضرات وأينما تنقلت في الكرة الأرضية فإنك تجد كتب ابن القيم والألباني وابن باز ومحمد الغزالي وأبي الحسن الندوي وحسن البنا وغيرهم كثير في حين أن كتب العلمانيين تجدها محدودة الانتشار والتوزيع، وكثير منها لا تجد من يشتريها، أو يؤيدها أو حتى يقرأها، ونظرة سريعة للمؤلفين العلمانيين أو المتأثرين بالعلمانية خلال الخمسين سنة الماضية تكشف لنا أن الأغلبية الساحقة من الناس بل من الجامعيين والمثقفين لم يقرأوا لهم حتى ولو كتابا واحدا، بل لا يهتمون حتى بالبحث عن كتبهم وقراءتها وأصبح مكانها المتاحف، أين مؤلفات طه حسين، وساطع الحصري، وفرج فوده وفؤاد زكريا!.

5- الحسم الرياضي: وهو أن نقوم بعمل مصارعة جماعية بين المسلمين والعلمانيين في الأمة، ومن ينتصر في هذه المصارعة يكون فكره هو المسيطر، وهذه مبارزة عادلة، وتعتمد على القوة والبقاء للأقوى، وعلى المهزوم أن ينسحب من الساحة. ونعلم أن

المسلمين أكثر من العلمانيين بآلاف المرات، وأنهم في دقائق ولا أقول في ساعة سيتم هزيمة جميع العلمانيين في الوطن العربي . ذكرت خمسة أنواع من طرق الحسم بين المسلمين والعلمانيين، وهي طرق عادلة، ولا يهمني أن تكون مقبولة من الطرفين، أو مرفوضة، ولكن أردت أن أبين أن العلمانيين لو كانوا يستخدمون العقل والعلم لوفروا جهودهم، ورحلوا من الأمة، فالحقائق الفكرية ضدهم، والشعب ضدهم، وممثلوه ضدهم، والطلاب ضدهم، وعلماء الإسلام ضدهم، والثقافة ضدهم، والتاريخ ضدهم، والحاضر ضدهم، والمستقبل ضدهمالخ فهم ليسوا أكثر من ظاهرة صوتية. تنتقد وتكتب وتشوه وتتهم وهذا هو الشيء الوحيد الذي نجحوا فيه.

نصائح للبراليين

لدي المخلصين من الليبراليين صدق وإخلاص للوطن، ورغبة صادقة في الالتزام بالحق والعدل ولديهم تفهم وتقبل لحقوق الإنسان، وإنصاف الأقليات ولديهم ثقافة عالمية، وخبرات اقتصادية وسياسية جيدة، ولكن في المقابل لديهم عيوب فكرية وسياسية أدت إلى ضعفهم وقلة شعبيتهم والتي ظهرت في انتخابات نيابية وطلابية في العديد من الدول العربية ولهذا سأحاول أن أنصحهم مع اقتناعي بمحدودية استعدادهم لقبول القول ممن يخالفهم ونصائحي هي:-

1- من المعروف أن مخالفة عقائد ومبادئ الأمة من الأخطاء التي لا تغتفر، وكما قيل ليس بعد الكفر ذنب فالليبراليون في أغلبهم ينتمون للفكر العلماني سواء بصورة كلية أو جزئية، وهذه خيانة عظيمة فكرية للمبادئ الإسلامية. والصراع العقائدي صراع جذري يجب أن يحسم لأحد الأطراف لأنه لا يمكن التعايش معه على مستوى الدولة والشعب، ولا شك أن الأمة العربية بل كل الأمم المسلمة لا تقبل غير الإسلام كفكر ومنهج بغض النظر عن درجة الالتزام العملي به، وهذا يعني أن الفكر العلماني سيتم القضاء عليه بالانتخاب، أو بالقوة، وبالتالي فليختصر الليبراليون الطريق بتبني فكر إسلامي معتدل؛ هذا إذا كانوا يريدون المشاركة في بناء الوطن والأمة، والخيار الآخر أن يبقوا كما هم حالياً يغردون خارج السرب، ومكروهين ومنبوذين كفكر وأفراد!.

2- الفكر العلماني فكر ضعيف، وهو عاجز عن تحقيق وحدة فكرية بين العلمانيين ناهيك، على مستوى الشعب أو الأمة، والضعف

العقائدي يجعل البناء الحزبي والحكومي ضعيفا، ويكون دور الأفراد في التأثير كبيرا. والإنجازات الكبرى في الدول لا يتم تحقيقها من خلال الثقة بالفرد أو الحزب بل من خلال المبادئ والعقائد التي يتبناها الشعب، فإذا كانت العقائد صحيحة وسامية كالإسلام كانت الإنجازات عملاقة وشاملة، وكلما كانت العقائد هزيلة وجزئية كالشيوعية والرأسمالية كلما كان هناك تخبط وفشل وضياع، وهذا لا يتعارض مع تحقيق بعض الإنجازات الطيبة فليس كل ما في الرأسمالية مثلا شرا كله. وكسب الأصدقاء والموالين الحقيقيين لا يتم إلا من خلال الجانب العقائدي قال تعالى: "وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم" (63) سورة الأنفال وإذا تم الاعتماد على فكر علماني هزيل تصبح عملية إقناع الناس عملية فاشلة ولهذا نجد الأحزاب العلمانية العربية ضعيفة، ودائما في غرفة الإنعاش إن لم نقل في المقبرة، حتى أصبح استمرارها أو وجودها بغض النظر عن قوتها هو الإنجاز الكبير الذي تفرح به. وهذا لا ينطبق فقط على أحزاب المعارضة العلمانية بل حتى على من وصل منها إلى الحكم، أي أتاحت لها إمكانيات دولة فكانت النتائج متواضعة، فلا زال الفقر والاستبداد والضعف العسكري والسياسي والعلمي هو السائد. فالتجمعات العربية المتأثرة بالعلمانية في أواسط القرن العشرين كانت قائمة على كلمات عامة مثل وحدة حرية اشتراكية وهذا فشل من أول الطريق، فهي لم تعرف الحق والفكر الصحيح قال الإمام علي كرم الله وجهه: "اعرف الحق تعرف أهله" فلا بد أولا من معرفة الحق، ولا يمكن إطلاقا تجاهل هذه الخطوة.

3- لبيتعد الليبراليون عن المجال الفكري وليركزوا كل جهودهم على الجوانب الفنية والمهنية كالإصلاح الإداري والاقتصادي والعلمي والتعليمي، فهذه أهداف مشتركة بينهم وبين الاتجاه الإسلامي، وهي أيضا أهداف شعبية، وفي هذه المجالات لن يدخلوا في صراع مع الاتجاه الإسلامي بل يمكن أن يتعاونوا معه في حلف كحلف الفضول. وهذه المجالات مما يتناسب مع علمهم وتخصصهم وتحقيق نجاحات فيها أفضل مائة مرة لهم ولأوطانهم من الجدل والكتابة والكلام والشعارات والمعارك التي يدخلونها مع الاتجاه الإسلامي فهم لن يصلوا للعنب، ولن ينتصروا على الناطور، فليبتعدوا عن أمراض الفلاسفة، وليركزوا على ما يمكن أن ينجحوا فيه علما وعملا، هذا إذا

كانوا يريدون أن يكونوا واقعيين فمن الواقعية أن تركز على ما يمكن أن تنجح فيه لا على ما ستفشل فيه.

4- وقف كثير من الليبراليين بعد أحداث نيويورك موقفا سياسيا مواليا لأمريكا ومعروف أن الشعوب العربية مشبعة بالعداء لأمريكا، وهذا العداء لم يأت من فراغ، وليس كله مبني على اتهامات باطلة. وهناك حالة من العشق عند كثير من الليبراليين لثقافة أمريكا وفكرها ومنتجاتها، بل حتى للغتها ومواقفها وأراضيها وعاداتها، وستبقى أمريكا دولة لها مصالحها، والتي سيتعارض بعضها مع مصالحنا كشعوب وأمة، وهذا يعني أن على الليبراليين أن يحسموا أمرهم لأنهم لا يمكن أن يكونوا مع مصالح أمريكا وفي نفس الوقت مع مصالح أمتهم العربية، وأن يدركوا أن هناك فرق شاسع بين إقامة علاقات طيبة مع أمريكا أو غيرها وبين أن يكونوا طابورا خامسا لأمريكا، ولهذا ننصح الليبراليين بفك التشابك مع أمريكا وأن يبنوا علاقاتهم بأمريكا من خلال فهم عاقل للسياسة العالمية وأن يقللوا كثيرا من إقتناعاتهم "بالمبادئ الأمريكية" و "الصدقة والسلام والحب..... الخ فهذه الأمور لا وزن كبير لها خاصة مع أمريكا، كما قالت أم جون كنيدي " معك دولار فقيمتك دولار " أي الدور الأكبر عندهم هو للمصالح لا للمبادئ.

5- من الواضح جدا أن الليبراليين فئة منعزلة عن المجتمع والأمة بدرجة كبيرة، ليس فقط في عقائدها وثقافتها بل أيضا في علاقاتها وروابطها. ومن بديهيات الإصلاح أنك لن تستطيع المساهمة في البناء، ناهيك عن القيادة، إن لم تتفاعل مع الشعب فلا بد من المعاشية الفعلية حتى نفهم آماله وآلامه وظروفه ومشاكله وآراءه فلا يمكن أن تكون ممثلا لشعب لا تعرفه، ولا يعرفك، أو تنظر بدونية وسطحية لأفكاره وآرائه وتريد في نفس الوقت أن يؤيدك ويساندك. ويكتسب هذا الأمر أهمية خاصة لأن الليبراليين "يقولون" من مبادئهم الالتزام برأي الأغلبية، وهم لا يقصدون بالأغلبية أغلبية الليبراليين بل أغلبية الشعب.

الحوار بين المخلصين

اختلاف المخلصين استغله أهل الفساد ممن فسدت ضمائرهم وقلوبهم، ولا ينتمون إلى أي مبادئ، وهمهم هو مصالحهم وشهواتهم، سواء كانت مناصب أو مال أو ملذات وحرص هؤلاء على إشعال

الفتن بين المخلصين حتى لا يتحدوا على الحد الأدنى من المبادئ المشتركة بل تحالفوا أيضا مع بعض المخلصين، وصحيح أن الاختلاف بين المخلصين سيبقى موجودا للأبد، ولكن هذا لا يمنع أن يتحد أكبر عدد من المخلصين ضمن عقيدة صحيحة تحقق العدل والحرية، وتحارب الباطل والخطأ بكل أنواعه العقائدية والسياسية الموجودة في بيئة المخلصين ويمكن تحقيق هذا من خلال الدراسات المتعمقة للمبادئ والحوارات الراقية والشاملة والمنظمة، ولاشك أن المخلصين أصحاب الضمائر النزيهة هم أهل الصدق والعلانية والصراحة، وسيراجع جزء منهم عن مبادئه إذا اقتنع أنها كانت خاطئة، وما نقوله حدث مع أفراد وجماعات وشعوب على مدى التاريخ، وهو يحدث كل يوم، وأهم مشكلة أن كثيرا من الحوارات بين المخلصين إما أن تكون بين أفراد ليس لديهم علم كاف في مبادئهم وإما أن يكون حوارا ناقصا أو جزئيا أو غير منظم أو سريعا أو هدفه إخراج الخصم أو هزيمته أو تؤثر به أحداث سياسية، وإرهاب فكري، أو سياسي والغريب أننا نادرا ما نجد حوارا منظما واعيا وعميقا يتعمق في أسباب الخلاف بين المخلصين، ويحاول أن يحدد أين الخطأ الفكري؟ وهذا ليس فقط على مستوى العالم بل أيضا على مستوى الأمة العربية، وعلى مستوى الشعب الواحد. ولاشك أن من يبني مبادئه على أدلة عقلية وتفكير ونقاش لا يخشى من الحوار العلمي الهادف، ولهذا نكرر الدعوة بضرورة عمل حوارات مكثفة ومستمرة ومنظمة بين مختلف القوى الشعبية، فنحن نعيش في كارثة من الجهل سببها الفهم الخاطئ، والمعلومات المزورة، والاتهامات المتبادلة، والظن السيئ، والشك ودسائس الأعداء، فلنفتح أبواب الحوار بيننا، ولنضاعف الاتصالات، ولنركز أولا على الأسس الفكرية التي ننطلق منها، وأنا متأكد أن كثيرا من العلمانيين والمتأثرين بالعلمانية ممن نجدهم الآن ليسوا مستعدين للحوار العلمي والواثقين جدا من إقتاعاتهم سيكتشفون أنهم ليسوا بعيدين عن الضياع الشيوعي العلماني الذي ثبت فشله الذريع ويمكن عمل حوارات مكثفة حول قضايا إدارية واقتصادية واجتماعية لا اختلاف بين العقلاء على ضرورة العمل المشترك لتحقيق الأهداف الوطنية والقومية، وهناك مساحة كبيرة من القضايا الغير فكرية يمكن الاتفاق حولها بين المخلصين . وندعو أيضا للحوار بين الإسلاميين أنفسهم فهم وإن لم تكن لهم مشاكل فكرية جذرية إلا أنهم بحاجة إلى تقوية الاتصالات بينهم والابتعاد عن الانعزالية

والثقة الزائدة بالاجتهادات والتعصب لجماعة أو علماء أو مذهب، وهم أيضا بحاجة ماسة للحوار مع الشعوب والحكومات والأحزاب ومن الضروري جدا أن نعرف أن كثيرا ما يكون الحق مخلوطا بالباطل، أي أن لا يتم أخذ الأمور إما أبيض وإما أسود وأنه من خلال ضوابط ومواثيق واتفاقيات وخطوط وحوار وتنازلات يمكن الوصول إلى حلول لكثير من مشاكلنا وقضايانا، والمطلوب تغييرات هائلة في تنظيم وإدارة علاقاتنا مع بعضنا البعض حتى نخرج من الاختلافات التي أعاقتنا والتي كثير منها لن يحسم بالقوة، أو بالانتخاب كما جربنا بل لابد من الحوار، ومما يشجع على الحوار أننا لسنا مختلفين حول الالتزام بالإسلام، ولسنا مختلفين على أنواع كثيرة من الحرية، ولسنا مختلفين على أننا نواجه مشاكل كبيرة من الفقر والتخلف التعليمي والتكنولوجي والاجتماعي والإداري وما أدعو إليه من بديهيات الأمور، وهناك من طبقه وحقق نجاحا كبيرا.

غورباتشوف والعلمانية

من المعروف عن الكاتب المصري أحمد رجب أنه كثير الانتقاد لدكاترة الاقتصاد في مصر، ويجعلهم أحد أسباب تخلف الاقتصاد المصري لأن آراءهم ومقترحاتهم غير صحيحة وقد اتفق معه غوربا تشوف الرئيس السوفيتي الذي جرب مقترحات خبراء الاقتصاد السوفيتي، فأصابت الاقتصاد السوفيتي الكوارث، مما جعل الأستاذ أحمد رجب يذكر هذه الطرفة عن غوربا تشوف في مقاله المشهور 1/2 كلمة: "نقلت وكالات الأنباء نكتة لجوربا تشوف يقول فيها: "إن الرئيس الفرنسي له مائة صديقة بينهن واحدة مصابة بالإيدز لا يعرفها ميتران، والرئيس الأمريكي له مائة حارس بينهم إرهابي لا يعرفه بوش أما هو (جورباتشوف) فعنده مائة خبير اقتصادي بينهم واحد ذكي لا يعرفه" وواضح أن الشكوى أصبحت عالمية من دكاترة الاقتصاد" وإذا عزلنا الجانب الساخر في كلمة غوربا تشوف فإن هناك كثير من الفوائد يمكن استفادتها من التجربة البشرية الواقعية مع دكاترة الاقتصاد، والتجربة خير برهان، ومن هذه الفوائد ما يلي :-

1- أن هناك نسبة عالية جداً من الأخطاء في آراء واجتهادات خبراء الاقتصاد والعقائد وعلماء الاجتماع العلمانيين وخاصة في أسس علمهم ومبادئهم والتي تنعكس في فشل كبير نتيجة تطبيق نظرياتهم ومقترحاتهم وآرائهم أي بكلمات أخرى إن نسبة الجهل كبيرة عند

هؤلاء في مجال تخصصهم. فهؤلاء ليسوا علماء حقا حتى ولو حصلوا على شهادات الدكتوراة، وهذا يرجعنا إلى القضية الأولى في العلوم الفكرية الاجتماعية: ما هو العلم الفكري؟ وكيف نصل إليه؟ وما هو الجهل؟ ومن هم أهله؟ ولنتذكر كلام الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "أعرف الحق تعرف أهله". والحق هو العلم، والباطل هو الجهل والعلمانية جعلت بعض الناس علماء وهم ليسوا كذلك، وما ينطبق على الخبراء السوفيت في الاتحاد السوفيتي ينطبق على فلاسفة ومفكري الغرب في مجال العقائد والحياة الاجتماعية، فالفشل في حياة الإنسان الغربي واضح جدا في هذه المجالات، فقد تحول الإنسان الغربي إلى إنسان ذي عقائد مشوهة ومتناقضة أنتجت القلق والمادية والأنانية والانغماس في الشهوات.

2- تقدم أمريكا في مجال الاقتصاد لا يرجع "للعبقرية" العلمانية في مجال العلم الفكري، فالمبادئ الرأسمالية كانت معروفة قبل ظهور العلمانية، حيث كان هناك النظام الاقتصادي الإسلامي الذي يؤمن بحرية التملك والتجارة والمنافسة... الخ بل إن الإقطاع الذي كان في أوروبا في العصور الوسطى هو نوع متطرف من الرأسمالية، وبالتالي فالرأسمالية ليست اختراعا علمانيا بل هي المبادئ السائدة في العالم، والفكر الشيوعي هو الفكر الاستثنائي. وما فعلته أمريكا وأوروبا هو تنظيم وتطوير حركة رأس المال، ونجحوا في ذلك لدرجة كبيرة، وهذه أمور في أغلبها فنية وإدارية، ولا علاقة لها بالعلمانية، وهذه أمور لا يعارضها الدين، بل يدعو إليها.

3- إذا كانت نسبة الباطل والخطأ كبيرة في العلوم الفكرية عند المتخصصين فيها في الغرب والشرق فإن الكارثة تكون أكبر عندما يتكلم المتخصصون في مجال فكري ليسوا متخصصين فيه كما نشاهد في عصرنا هذا من دكاترة في الهندسة (علم مادي) يتكلمون في العقائد، أو عندما يتكلم دكاترة في القانون في مجال السياسة، وكثيرا ما وجدنا من العلمانيين والمتأثرين بالعلمانية من يتكلمون في مجالات كثيرة كالسياسة والتاريخ وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والمشاكل الاجتماعية، والغريب أنهم يتكلمون بثقة كبيرة وجدل حاد مع أنهم يعترفون أنهم ليسوا متخصصين، وما عندهم مجرد آراء، وليس حقائق، بل كل رأي عندهم يعتبر حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وصدق من قال من المسلمين عندما رأى التجروء على العلم الشرعي من بعض الناس حيث قال: "إن

8 - تطوير البحث العلمي الخليجي «تحت الإعداد».